١٩٨٩

مكتبة نوبل

كاميلو خوسيه ثيلا

سُحب عابرة

ترجمة: سامي الشقر



سحب عابرة



مكتبة نوبل

Author : Camilo José Cela
Title: Esas Nubes que pasan
Translator : Ali Achkar
Al- Mada :P.C.
First Edition :year 2000

اسم المؤلف : كاميلو خوسيه ثيلا
عنوان الكتاب : سحب عابرة
ترجمة : علي أشقر
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٠

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O Box : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

١٩٨٩

نوبل

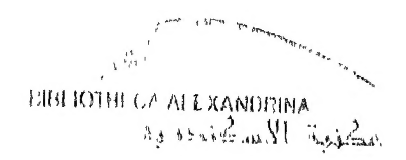
كاميلو خوسيه ثيلا

سحب عابرة

ترجمة

علي أشقر





تمرّ السحب فوق المدينة شامخة الأنف أحياناً كسادة عشاق متكبرين ؛ ورمادية قاتمة أحياناً أخر كمتسولين جوّالين ملحفين أو كمدّينين غارمين يبغضون ضوء الصباح .

المدينة ليست كبيرة ولا صغيرة . على الأغلب ، لم يتبدل فيها شيء منذ سنين كثيرة ، كثيرة جداً . ومع ذلك ، تلصق الأزمنة الكئيبة – وما أمرّها! – بأفواه الرجال والنساء الذين لم يعرفوا زمناً أفضل ، لكنهم أمسوا يعتقدون لفرط تكرارها ، أن كل زمن ماض ، كان الأفضل . أصدقائي من المدينة العجوز والبحرية كقارب منتفخ ، يفدون إلى صحفي ، في مثل ردّ الطرف كئيبين مغتمّين ، وهم بين أحمق طائش ، وعاقل حصيف . وهم كالسحب التي تمر – كما تعلمون – فوق المدينة .

كاميلو خوسيه ثيلا

جريمة شارع بلانشار الغامضة

خواكين بونوم الذي كان ذا ساق خشبية من صنوبر ترشح صمغاً ، صمغاً أصفر دبقاً وكأنه ما يزال ينزّ من صنوبرة حية ، أطبق الباب وراءه وقال :

- ألدينا شيء ؟

- لا شيء لدينا .

وتملّك الغضب زوجه/ منتشو أغر ثابالا/ التي كانت فظة وذات عين من زجاج تنز منها قطيرة ماء صفراء دبقة وكأنها ما تزال تنز من عينها الحية التي فقدتها في بوردو لما ضربها عليها أخوها الممتل فرمين أثناء وباء الكوليرا .

تولوز مدينة حزينة قاتمة في الشتاء بمصابيحها الغازية الصغيرة التي توقد منذ الخامسة مساء ؛ بأنغام أكورديوناتها البعيدة التي تنوح كرضع مهجورين ؛ بمقاهيها الصغيرة ذات الستائر المخرمة حول النوافذ ؛ بنسائها المنكرات لذواتهن ، هؤلاء النساء المنكرات للذات اللاتي ينحرفن عن الطريق القويم ليوفرن تمن أجهزة أعراسهن ، أجهزة أعراس لن يحتجن إليها أبداً لأنهن لن يعدن إلى الصراط المستقيم . تولوز ، كما قلت مدينة حزينة ، وفي المدن الحزينة - كما هو معلوم - تكون الأفكار حزينة أيضاً وترهق الناس لشدة وطأتها .

خواكين بونوم كان قد عمل في كل شيء : كان عامل منجم ، ورقيباً في سلاح المشاة ، وعامل تجميل ومروج مواد صيدلانية وبائعاً متجولاً ، وموظفاً في مصرف ميدي ، ومهرجاً وجابياً للضرائب وحارساً في بلدية أركاشون . من هذه المهن المتعددة التي مارسها وفر بعض آلاف من الفرنكات وصمم على الزواج . فكر في ذلك ملياً قبل أن يقدم عليه ، لأن الزواج مسألة خطيرة جداً . وطلب النصح من هؤلاء وأولئك خشية أن يتصرف بوحي من تفكيره فقط ، ثم انتهى – كما تقول العامة – إلى أن صام دهراً وأفطر على بصلة . كانت منتشو – وما أقبحها! – طويلة ، ضخمة الأنف ، شبه صلعاء ، ممصوصة ، قرمزية اللون جد حقيرة حتى دُفع أخوها – وهو لم يكن ضبُعاً – إلى أن يغضب ذات يوم أكثر مما ينبغي له ، فقلع عينها .

كان أخوها فِرْمين هذا قد اضطّر إلي معادرة آتيبيتيا لأن سكانها الذين كانوا سيئي الظنّ جداً أخذوا يقولون عنه إنه خُنْثى ، وجعلوا عيشه محالاً . لما رحل كان في التاسعة عشرة من عمره ، ولما قلع عين أخته بعد سنتين من ذلك ، صار يقلّد نجوم مسرح الموزيت في بوردو . وكان يشرب فودكا ، ذلك المشروب الذي يُصنع من الكبريت ؛ ويغنّي "الحب والربيع" ، وينتف حاجبيه .

خواكين الذي لم يضطرّ خلال حياته الطويلة الملأى بالأخطار ، إلى أن يشكو أي حادث ، فقد ساقه بعيد زواجه بأغبى طريقة ، ذلك لما صدمه قطار ذات يوم عند خروجه من بايونا . هو يقسم ويؤكد القسم إن زوجه دفعته ، لكن الأقرب إلى الحقيقة هو أنه سقط من تلقاء ذاته متأثراً بكمية الكحول الكبيرة التي شربها . أما الشيء الواضح فهو أن الرحل ظل دون ساق ، وبقي رهن البيت إلى أن صُنعت له ساق من حشب الصنوبر . وكان يلقي بالمسؤولية على زوجه أمام الناس جميعاً ، وما كان ليدهشني أن يسحقها ركلاً لو استطاع إلى ذلك سبيلاً . وكان يفكر كثيراً في مسألة الركل هذه .

وكان معظم همّه ، يومئذٍ ، يأتيه من تلك الفكرة في أنه صار عاجزاً ، كان يفكر :

- ما أتعس رجلاً يضطر إلى أن يستند إلى مقعدين كيما يركل زوجه في مؤخرتها! .

كانت منْتشو تسخر في حضوره ، من عرجه الدرامي . وكان خواكين ينسى آلام قدمه إذا همّ بلعنها . قدم ، من يدري إن كان أُلقي بها في القمامة حقاً . شيء ولا أغرب إن حدث! .

كان الرجل يجد المصير الذي حلّ بقدمه أمراً لا يمكن التحقق منه ، وكأنه سر مستتسرّ .

- أين يكون انتهى بها المطاف .

إن ترْك قطعة من الجسد ترحل على هذا الشكل في عربة القمامة شأن خطير . لكن فرنسا بلد متحضر ، ولعل الشرطة عثرت عليها ، ونقلتها مصرورة بمعطف كأنها طفل مريض إلى المخفر... ولعل رئيس المخفر ابتسم ببطء ابتسامة يعرف رؤساء المخافر وحدهم أن يبتسموها متى بلغوا ذروة خدمتهم . ولربما نزع عود الخلال من فمه ، ومسد شاربيه بعناية ، ثم قد يخرج عدسة مكبرة من درج مكتبه ، وينظر إلى القدم . ولربما بدت أشعار القدم كالخيطان إذا نظر إليها بالعدسة ؛ وقد يقول للحرس ، لهؤلاء الحرس العجائز كالقوارب ، لكنهم فضوليون كالخادمات .

- هذا واضح ، يا شبان ، واضح! .

وربما تبادل الحرس النظرات بمؤخر الطرف سعيدين بإحساسهم أنهم موضع سر السيد رئيس المخفر . ويا للنكر! بعض الأفكار مطواع ككلاب التنورة ، وبعضها عنيدٌ يرهق الذهن كأنه العفريت . فكرة القدم هذه هي من الأفكار الجامحة . ويحسّ المرء بالقلق إذا ترك الخيال يدور حول هذه المسائل . نحن ننظر إلى رجال الشرطة بخوف ، لأن رجال الشرطة ليسوا

البابا ويمكنهم أن يخطئوا كما يخطئ الناس كافة . وفي ذلك يكون هلاكنا .
فيجعلوننا نمثل أمام رئيس المخفر ، ورئيس المخفر ليس هو الآخر معصوماً ،
وعلى الأرجح ينتهي بنا المطاف إلى الغويانا... وفي الغويانا ينتشر وباء
الملاريا في كل ركن... مثلاً يُحظر على الشرطة وجدانياً أن يطلبوا قبسة نار
من المارة في الشارع ، لأنهم يعلمون أن قلوبنا ستضطرب في صدورنا .
يُحظر ذلك عليهم وجدانياً ، لكنهم قلّما يأبهون بهذا الحظر : يقولون إن ذلك
غير مكتوب في اللوائح .

أسوأ الشرور التي قد تصادف المرء أن تساوره القناعة شيئاً فشيئاً بأنه
صار عاجزاً . إذا اقتنع بالقضيّة فجأة ، فلا خطر في ذلك : فسوف ينساها
أيضاً فجأة صباح اليوم التالي . إنما السوء يتسرب إليه حين يكون الاقتناع
ببطء وبكل حرص لأنه لن يجد حينئذٍ من ينزع هذه الفكرة من رأسه.
ولسوف يصاب بالهزال بمرور الوقت ، ويفقد حمرة وجهه ويعاني من الأرق ،
وهو المرض الذي يسمّم أبدان المجرمين أكثر من أي شيء آخر ؛ وفي ذلك
هلاكه الأبدي .

خواكين بونوم كان يريد أن يهدهد هذه الأفكار ، بالأحرى كان يريد
أن يهدهدها أحياناً ، لأنه في أحيان أخرى كان يتسلى بالنظر إلى ساقه
الخشبية ، وكأن ذلك أمر مسلّ جداً ، ويلمسها بعد ذلك بحنان ، أو يحفر
حرفي اسمه الأولين B , J متعانقين ملتفين حول بعضهما .

- أعْجِبْ برجلٍ دون ساقين ، يظلّ مع ذلك ، رجلاً! -كان يقول دائماً
وكأنما يريد أن يرى ذلك بوضوح أكبر ، ثم كان يفكر :

- ها هو فِرْمين بساقيه كلتيهما ، فماذا يعني ؟

لم يتسعر خواكين قطّ بودّ نحو الممثل . كان يجده - كما يقول - أضأل
من أن يكون رجلاً ، وأنحل من أن يرقى إلى مستوى النساء . وإذا ما جاء
تولوز كان يعامله بجفاء بل ربما بشيء من القسوة أحياناً ، وإن كان يجلبه

دائماً إلى بيته في شارع بلانشار . وكان فِرمين إذا أغلظ له صهره القول ، بدت عليه علائم الخوف ، ويبلع ما يشاء أن يقول له . أما أخته مِنْتشو فكانت تقول له عادة إن عينها قُلعت بمعجزة ، وإنها لا تكنّ لأخيها سوءاً . بل على العكس من ذلك كانت تعامله بحفاوة ، فكانت تهرع كل ليلة لتتأمله من عند منضدتها وقت مجيئه من العمل في المدينة إن كان يعمل . وكانت تتباهى أمام جاراتها بفنّ أخيها . وعلى المائدة كانت تقدّم له بكل حنان صحوناً كبيرة من الفطر الذي كان معجباً به أيّما إعجاب .

– أرأيتِ ، يا سيدة ، الدور الذي قام به في مسرحية راكيل ؟ أرأيت دوره في بولوا ؟ أرأيت دوره في مستنغيت ؟ أرأيت ما قام به في مسرحية آرختتينا ؟

والجارات لم يكنّ رأين قطّ شيئاً من هذا . وأقبح بهنّ من جارات!

وكنّ ينظرن إليها ذاهلات بل حاسدات ، وكان يبدو عليهن أنهن يفكرن كالتالي :

– ما أحسن أن يكون لهنّ أخ فنّان!

ثم يعترفن بعد ذلك خجولات على شكل حميم :

– راؤول ليس إلا إطفائي! ... بيير هو مجرّد عامل في محل السيد لافينيستر... إتيين قضى حياته وهو يداعب بمحسّة معدنية أكفال جياد دالاثا... أمّا أخ فنان...!

وكن يبتسمن حالماتٍ ، وهنّ يتخيلن راؤول مؤدياً بالرقص دور المايسترو بِدْرو ؛ أو بيير وهو يدور كالإعصار في باليه بتروشكا ؛ أو إتيين سائراً على رؤوس أصابع قدميه كأنه تمّ مُحتضر... بُعداً لهم ولتفاهتهم! وكانت الجارات يُجبْن أحياناً خشية أن يوصمن بالجهل ، أن نعم شاهدن فِرْمين ، شاهدن غارسون باسك – كما كان يُسمى في لوحات الإعلان . وفي ذلك

ضياعهن . فتطاردهن مِنْتشو بأسئلتها ، وتحاصرهن بظنونها ، ولا تكفّ حتى تراهنّ خانعاتٍ ، مقتنعات ، مستسلمات إعجاباً بفنّ أخيها .

خواكين على العكس منها ، ما كان يحس بود كبير نحو غارسون باسك . ولطالما قال لأخته إن عهد إيواء الممثل في سقيفتهن في شارع بلانشار قد انتهى وانقضى .

– بيتي فقير – كان يقول – لكنه شريف . وجلب أخيك للنوم في البيت يستدعي كثيراً من الكلام . لا تنسي ذلك .

وكانت مِنْتشو تلجّ في تعنّتها وتؤكد أن الناس لا يهمهم أمر الجار في شيء ؛ وتلحّ على أنها لا ترى أدنى سوء في مجيء أخ للنوم في بيت أخته ، وتخلص إلى الصياح بطريقة غير ملائمة ، إن البيت كبير ويتوفر فيه مكان فائض لفرمين . وهذا كذب . لأن الحجرة ضيّقة جداً ؛ لكن مِنْتشو ما كانت تستجيب لحكم العقل ، وما كانت تأبه بحجج زوجها الذي كان يبدي صبراً يفوق طاقة حمار . ومن يدري إن كان إلحاحها هذا إشفاقاً على أخيها أم لسبب آخر .

في الواقع ، لا توجد حجرة واحدة في شارع بلانشار ذات اتساع كافٍ لإيواء شخص أجنبي . بل هو شارع قصير مزدحم ، ضيّق ووسخ ، ويعلو البيوت على كلا جانبي الرصيف ذلك الزنجار الذي تضفيه السنون وحدها ، والدم المراق على الواجهات . كان البيت الذي يقطن في سقيفته تحت الجمالون خواكين بونوم وزوجه ، يحمل الرقم ١٧ مرسوماً بصبغ أحمر على مصراع الباب ، فيه ثلاثة طوابق موزّعة بين يسار ويمين ، وملحق نصفه مخصّص للعفش والنصف الآخر يقي الزوجين المتنافرين ، من عوامل الطقس . في الجانب الأيسر من الطابق الأول ، يقطن السيد ليبينار موظف البريد المتقاعد وبناته الإحدى عشرة اللاتي لا يتزوجن ولا يدخلن الدير ليصبحن

راهبات ولا يهربن مع أحد ، ولا يعملن عملاً نافعاً . وفي الجانب الأيمن منه ، السيد دوران وهو رجل سمين جداً وغامض ودون مهنة معروفة ، ومدموازيل إيفيت التي كانت تبصق دماً وتبتسم للجيران على الدرج ؛ وفي الجانب الأيسر من الطابق الثاني يعيش السيد فرواتان محاطاً بالقطط والببغاوات ، ولا يدري أحد من أين جاء بها ؛ وفي الجانب الأيمن السيد غاستون أوليف – ليفي الذي له رائحة الكبريت الكريهة ، ويتاجر بكل ما يمكنه التجارة به ؛ ويعلم الله إن كان يتاجر أيضاً بما لا يمكن التجارة به ؛ وفي الجانب الأيسر من الطابق الثالث ، يقطن السيد جان لوي لوبيث أستاذ البيانو ؛ وفي الجانب الأيمن من الطابق ذاته ، مدام بير جراك – مون سوري ذات الخمار الدائم ، والحديث الدائم عن زوجها الذي كان حسب زعمها مقدماً في سلاح المدفعية ، وتشكو الزمن دائماً وقسوة الحياة وما تسرقه الخادمات منها... وأخيراً ، كان يعيش في الملحق – كما قلنا – مِنْتشو وخواكين المتنافران دائماً في حجرتهما العارية ، ويعدّان طعامهما في مطبخ صغير على النشارة التي تطلق دخاناً كثيفاً يلهب العيون . باب الحجرة منخفض الارتفاع بل هو أخفض من قامة رجل ، ولا بد لمن يدخل الحجرة من أن يحني رأسه قليلاً . وكان خواكين بونوم يقوم ، بسبب عرجه بانحناءة جدّ ظريفة عند الدخول ، وكان يبعث على الضحك رؤيتُه يفعل ذلك . لقد دخل ، إذن . وكما نعلم ، أطبق الباب وراءه .

– ألدينا شيء ؟

- لا شيء لدينا .

إن خواكين الرجل الذي عمل لما كان يتمتع بساقين من لحم وعظم في مجالات شتّى ، كان يجد نفسه اليوم ، لما صار بساق واحدة من لحم وعظم ، وأمسى بأمس الحاجة إلى الساق الأخرى ، دون عمل وعلى شفا أن يُرمى به

وبأشيائه القليلة وبزوجه إلى الشارع في يوم هو أقل الأيام توقّعاً له .

كان يخرج كل يوم بحثاً عن عمل ، لكن دون جدوى . والعمل الوحيد الذي عثر عليه منذ خمسة وعشرين يوماً كان نقل بعض الكتب في محل برتلومي لتجارة المواد المستعملة . ولم يلبث فيه سوى ثمان وأربعين ساعة لأن صاحب المحل المحاط دائماً بالثياب المتسخة ، لم يشغل نفسه قط بقضايا الروح ، فضبطه يكتب قصيدة وطرده .

في ذلك اليوم ، رجع مهزوماً محبطاً كالأيام الأخر ، لكنه كان في مزاج أسوأ وصارت زوجه - كما يعلم - كتلة من الغضب .

* * *

١

كان رئيس المخفر ضجراً كمحارة .

– في تولوز لا يحدث شيء!

كان يقول شاكياً.. وهذا حق . في تولوز ما كان يحدث شيء . فبعد ست وثلاثين سنة من الخدمة ، ماذا يعني الانشغال بخطف محفظة أو الاهتمام بسرقة زوج من الدجاج ؟

– باه! – كان يقول – لا يوجد حافز! في تولوز لا يجري شيء!

ثم يستغرقه التفكير منطوياً على نفسه ، راسماً زهوراً وعصافير على ورق النشّاف ليعمل شيئاً ما .

خارج المخفر ، كانت السماء تمطر ببطء وحزن على المدينة . وكان المطر يضفي على تولوز جوّاً كجوّ سهرة على ميت . في المدينة الحزينة تكون الأفكار – كما هو معلوم – حزينة أيضاً ، وتنتهي إلى إرهاق الناس لشدة وطأتها .

أما الحرس فيروحون ويجيئون على نحوٍ روتيني تحت معاطفهم المشمعية السود متمترسين وراء شواربهم العريضة حيث تركت قطرات المطر الناعمة كريات شفافة مرتعشة . لقد أتى عليهم زمن لم يكن يقول لهم رئيسهم

ضاحكاً :

- هذا واضح ، يا شبان ، هذا واضح .

وهؤلاء الحرس العجائز كالقوارب ، الفضوليون كالخادمات أمسوا منطفئين تقريباً حتى دون تلك الكلمات .

في المبنى ذي الرقم ١٧ في شارع بلانشار الكائن على بعد ناصيتي شارعين من المخفر - والعالم منديل - كان خواكين بونوم ذو الساق الخشبية ، والرجل الذي طالما عمل في أشياء شتى خلال حياته ، وهو الآن دون عمل ، يتجادل وزوجه مِنْتشو التي كانت بالغة الفظاظة ، وذات قبعة مهترئة وعين من زجاج . وكان فرمين أغرثابالا ينظر إليهما وهما يختصمان واضعاً لفافته الشرقية بين أصابعه .

- أنت تحس برعب من العمل ، أعلم ذلك . لذلك لا تجد شغلاً .

وكان خواكين يتحمّل هبوب العاصفة على أفضل ما يطيق . وكانت زوجه تلحّ في لومه مرة أخرى .

- وإذا وجدته لا تظل فيه يومين . أفي مثل سنك وبوضعك يضبطك صاحب المحل تكتب شعراً ويطردك من العمل كما يُطرد الطّلاب!

كان خواكين يلوذ بالصمت قاعدة ومنهجاً . فما كان يقول شيئاً قط بل كان يسكت كالأخرس . وإذا ضجر من السكوت ، يستند إلى مقعدين ويلجأ إلى الركل بالقدم . وكان يسدّد إلى زوجه الركلة بدقة وفي وقت ملائم . فيأخذ صوتها يهمد شيئاً فشيئاً إلى أن تنصرف مزمجرة في السرّ ، باكية في أي ركن تجده .

وفكّر فرمين ذلك اليوم في أن يندخل ، ربما ليتجنب أن يلجأ صهره إلى الركل ، لكنه قرّ عزمه على عدم التدخل . وقد يكون بذلك أكثر حكمة .

أما أخته فكانت ما تزال ترغي وتزبد ، ولم يكن خواكين بدأ بعد .

وكانت هي متارة كالوحش ؛ وكانت قطيرة الماء الصفراء والدبقة التي ترشح من عينها الزجاجية وكأنها تقطّر من عينها الحيّة التي فقدتها في بوردو أثناء موجة الكريب ، تبدو بلون زهري ، ومن يدري إن كانت اصطبغت بقطرة دم!... وأخذت مِنْتشو تثور شيئاً فشيئاً وقد احمرّ وجهها من الغضب مطلقة ألسنة لهب من الحنق ، ألسنة لهب لم يستطع إخمادها المطر الذي يتساقط ناقراً الزجاج بلطف ، وهو يهطل ببطء وحزن على المدينة .

كان فرمين يجلس على الصندوق خائفاً ، ويرى تطور المشهد دون أن يقرر – بالنظر إلى مظهر مِنْتشو – أن يتدخل . كان مرتجفاً شاحباً فزعاً ، وكان يؤثر ذلك الوقت لو خسر كل شيء على أن يكون موجوداً في البيت . والله وحده يعلم إن كان المسكين يخمّن ما سوف يحدث ، يخمّن ما سوف يُصنع به بعد ذلك! وما كان أبعد السيد رئيس المخفر في ذلك الوقت عمّا سيظهر خلال دقائق معدودات من أمر خطير كان قد كفّ عن الظهور في تولوز! أمر طالما كان رئيس المخفر معنياً بأن يحدث! وهو على الأرجح الآن يشرب الجعة ، أو يلعب الشطرنج ، أو يتحدث في السياسة مع السيد الدكتور سان روسالي . ولعله ما كان يتوقع ، بعد ستة وثلاثين عاماً من الخدمة أن يحدث حادث جدير به في تولوز حيث ما كان يحدث شيء ، ولا يوجد حافز ما إلى العمل .

كان خواكين قد تحمل فوق طاقته ، فنهض وسار بخطا ذئب جريح تبعث على الذعر رؤيته . قرّب مقعدين من بعضهما ليستند إليهما وتأرجح : تات! وأطلق الركلة على زوجه . كانت مسألة ثانية واحدة : ولاذت مِنْتشو بالحائط لتتجنب الرفسة... ونجم عن ذلك أن دخل كلاّب في عينها الزجاجية . من يدري! ربما كان اخترق حنجرتها لو أصيبت به .

وعُلم أن خواكين ذُعر ممّا حلّ بزوجه ، وانزلق عن المقعد وزلّت قدمه فسقط على ظهره ودُقت عنقه .

كان غارسون باسك يجري من هذا الجانب إلى ذلك الجانب فريسة الذعر ، ولما وجد الباب هبط الدرج مسرعاً كروحٍ يحملها الشيطان ؛ ولما مر أمام الطابق الأول ، ابتسمت له أيفيت بصوتها الرنان :

- إلى اللقاء ، غارسون باسك!

وعند عبوره البوابة حيته بصوت واحد بنتا السيد ليبينار الصغريان اللتان لا هما تتزوجان ولا هما تصبحان راهبتين ، ولا تهربان مع أحد ، ولا تعملان شيئاً نافعاً .

- إلى اللقاء ، غارسون باسك!

وكان غارسون باسك يركض لاهثاً دون أن يدري لماذا ، ولا إلى أين ، ودون اتجاه محدد . كان المطر ما يزال يسقط لما أوقفته الشرطة ، هؤلاء الذين ليسوا البابا ، ويمكن لهم أن يخطئوا كما يخطئ الناس جميعاً... ظهرت صحيفة بوست ديتولوز تلك الليلة بعنوان مثير ، وكان البائعون يصيحون حتى أخذتهم البُحّة :

- جريمة شارع بلانشار الغامضة!

أما السيد رئيس المخفر الذي ليس هو الآخر البابا ، وقد يخطئ أيضاً مثلما يخطئ الناس كافة ، فكان يبتسم .

- جريمة شارع بلانشار الغامضة! ياه! -كان يضيف - تباً لهؤلاء الصحفيّين!

وكان الحراس مبتهجين يشعون فرحاً ، فقد قال لهم رئيس المخفر مرة أخرى :

– هذا واضح ، يا شبان ، هذا واضح! الويل لهؤلاء الممثلين! سأحبسهم جميعاً كإجراء احترازي كيلا تحدث هذه الأمور مرة أخرى .

* * *

الغويانا موبوءة بالبعوض الذي ينقل الملاريا . ولم يستطع غارسون باسك التكيف . كان يرقب ، وهو جالس على صندوقه ، الساعات تمر والأيام والأسابيع والشهور... لكنه لم يظفر برؤية سنة واحدة تمر عليه هناك...

* * *

دون آنسلمو

١١

قصّ عليّ دون آنسلْمو ، وهو شيخ عجوز ، قصّته ذات ليلة من ليالي كانون الأول عام ١٩٣٥ في نادي الريغاتا ، وذلك قبيل وفاته بشهر .

كانت ليلة ماطرة وباردة ، ولم يبق في النادي غير دون مِرْثلينو ودون دافيد ودون انْسلْمو وأنا .

كان دون مرْثليْنو ودون دافيد يلعبان ببطء مباراتهما الطويلة اليومية بالدومينو . وكان دون دافيد يكسب اللعبة دائماً . أمّا دون مرثليْنو فكان يصرّح كل ليلة أيضاً حين يرتدي معطفه .

لا أدري ماذا جرى لي هذه الليلة . إني أشعر بالضعف ، بالضعف الشديد! وبعد ذلك يأتي على كؤيس الخمر ويغطس قبّعته البحرية المقلمّة في رأسه ، ويقبض على عصاه ويسير قريباً جداً من الرصيف وهو يسعل حتى يصل بيته .

وقد شاء سوء الحظ أن يقدم دون مرتلينو مدريد في أيار من عام ١٩٣٦ .

- مدريد سارة جداً في الربيع - كان يقول لأصدقائه - وفوق ذلك ، ينبغي للمرء أن يرعى شؤونه .

لم يعرف الأصدقاء قط ما هي المصالح التي ينبغي للسيد مرتلينو أن يرعاها في العاصمة . لكنهم كانوا جميعاً يجدون مسوّغاً للحماس الذي يبديه في متابعة شؤونه .

– نعم ، نعم ، دون مرتلينو ، لا شك في ذلك . الحصان يزداد سمناً إذا تعهده صاحبه بالعناية . – كان يقول بعضهم – ومن كان ذا مالٍ فليسهرْ عليه .

كانوا يشعرون جميعاً بالرضا إذا أولاهم دون مرتلينو بسمة شكر . يا للمسكين دون مرثلينو فبعد عام ونيّف من وصوله مدريد توفيّ ، يعلم الله إن كان من الجوع أم من الخوف .

تناهى الخبر إلى القرية متشوشاً ومتناقصاً في البداية ، ثمّ أكّده القادمون من هناك . أما دون دافيد الذي لم يكن لديه شيء يلهو به ، فقضى ذلك المساء جالساً كأنه عصفور صغير ، على مقعد من الصفصاف ، يتأمّل بصمت لعبة الدومينو الصاخبة التي يلعبها الشبّان ، أو كأنه على أهبّة أن يدعو بجدٍ مفتعل كما كان يفعل منذ سنين خلت ، إلى اللعبة التي تُعقد في بار النادي بعد الغداء .

* * *

٣

كان دون انسلمو يُفضي تلك الليلة بذات نفسه . ولا أدري ما الإحساس الغريب بالثقة الذي أثاره شخصي فيه . لكنّي على يقين بأنه كان يقدس أشياء ، وأشياء هامة وجميلة ببطء يبعث على اليأس ، قاطعاً الجمل وأحياناً الكلمات كما يشاء ، لكن ، دن كلل ، كما تسقط دون كلل قطرات الماء على صحن من البكّليت موضوع تحت المصفاة الفضية اللامعة . وكان الصحن آخر مشتريات دون انسلمو ، سكرتير النادي .

كان دون انسلمو يسدل جفنيه فوق عينيه عند الكلام . وبذلك تكتسب قسماته كل الحلاوة والأهمية التي يمكن أن ترتسم على وجه عجوز وقبطان مركب تجاري متقاعد وممشوق القوام وطيب القلب كأنه زعيم سلتيّ من الزمن القديم .

* * *

٣

في عام ١٩١٠ كان دون آنسلمو في الخامسة والثلاثين . وكانت له فوق سنيّ تبابه تلك ، أبّهة أرضية كما يدعوها هو ، كانت موضع حسد الشبّان ، ومحطّ إعجاب فتيات ذلك العصر . فكان ينتعل أحذية مدبّبة الطرف من جلدٍ لمّاع ؛ أو « أبواطاً » رمادية ، رمادية فاتحة ، متلألئة كشهر أيار في بحر الشمال . كما كان يزعم ؛ وبناطيل مخططة من طراز إنكليزي ؛ وسترة ذات نطاق ما كانت تغيب عنها زهرة الغاردينيا المغروزة في عروة القبّة . أما ياقة القميص فعالية تتخللّها ربطة عنق معقودة . وكان يضع على رأسه قبّعة بلون القهوة كان يُحسن التحكم بها إذا دفعها بقوة كلما دخل مكاناً ليضعها فوق شيء ناتئ : سواء أكان مشجباً في النادي ، أم مصباحاً في الفندق ، أم تمثالاً في الدهليز محاطاً بأصص الأزهار ومقاعد من الصفصاف ، أم رأس وَعْل كان ملكاً لدون خورخيتو الذي يدير مشغلاً في ساحة بيته .

كان دون آنسلمو يكسر وتيرة صوته ليُعلمني بأنه بصدد قطع جديد في روايته ، فراح يحدّثني عن دون خورخيتو الذي كان يجلّه ويُعجب به . وكان دون خورخيتو في تلك الآتناء ذا لحية بيضاء جميلة ، وسلوك مستقيم وكلام حسن . كان دون خورخيتو إنكليزياً هادئ الطبع يتكلّم الإسبانية بلكنة أهل

غليتيـة ، ويعيش على خير ما يستطيع مشغولاً بأمور زوجه وأبنائه السبعة . أنا ما كنـت أعرفه . لكني أكّدت أنـي كنت رفيق أحد أحفاده في مدرسة لاس ماريتاس في شارع البجعة في مدريد . وكان الحفيد فتى هزيلاً غريب الأطوار ضعيف الإرادة خجلاً . لكّن كبرياءه لم تكن تعرف حداً . وهو اليوم – حسب ظني – يخطو ، ولم لا ، خطواته الأول في مجال الأدب . نظر إليّ دون آنسلمو بفرح وكأن صداقتي للحفيد تجعلني أبلع كل ما يقوله لي ، وانتهى إلى أن يعترف لي – بنحو سريّ – تقريباً – أنّ العالم كان منديلاً .

كان ذلك منطلقاً ليشرح لي كيف أنه صادف في ملبورن بحّاراً يعزف الأكورديون في الشوارع بعد أن أُنزل من السفينة في بلبرائيسو على أنه لص . لكنني سأقفز فوق القطع الجديد . وإلا ، فسوف تبدو الحكاية مملّة جداً .

* * *

ع

أيام احتفالات البلدة بأعيادها ، كان دون آنسلمو ينتعل حذاءه ، ويضع زهرة الغاردينيا ويرتدي قبّعته . وكان يبتسم من أعلى سطيحة النادي الحديثة السن مثله ، للصبايا ذوات القبّعات العريضة اللاتي يقصدن مراكز الاحتفالات المميّزة في الشوارع ليلاً ، وبعض ساعات من المساء .

بعد أن يتناول قدح الشاي في الساعة الخامسة ، (لأن دون آنسلمو كان يتناول قدحاً صغيراً من الشاي كل مساء . وجزاك الله يا دون خورخيتو!) ويدخّن لفافته عقب ذلك ، (غليون الخزف الهولندي لم يكن يشكل في ذلك الوقت جزءاً من أبّهته الأرضية) كان ينضمّ إلى أول مجموعة من المارّة ويقضي بين جدّ وهزل ما تبقّى من المساء بفرح وشرف ، مترثراً مع أصدقائه ، منحنياً أمام أمّهات الأطفال المشدودات الخصور ، داعياً هؤلاء إلى كلّ ما يعجبهم ؛ لأن دون آنسلمو – ولنقل ذلك عرضاً – ما كان ينقصه كلّ مساء (دورو) واحد يضحي به فيجعله سعيداً . فكانوا يمتطون الدوّارة – الفتيات يركبن مجسّمات الخنازير ، والسيّارات والفتيان الجياد – ، ويقومون بجولة في متاهة الحديقة ، ويشربون مياهاً غازيّة تجعل الصبايا حمر الوجنات ؛ ويلعبون بعض أرقام اليانصيب الخيري ، ويرمون على الأهداف .

وهكذا صار دون آنسلمو يوماً بعد يوم موضع إعجاب السكان جميعاً ، بتصرفه الحسن ، وبتبّر وجهه المحبّب دائماً ، وبكلمته اللطيفة الفكيهة . فإذا لم يجد بداً من أن يروّح عن دونيا لولا – والدة لوليتا وإسبرانتيتا ، وتيلديتا – كان يطلق سخريته بسرعة على المختّتين القبيحين . وإذا اضطر إلى الكذب على دونيا ماروخا – والدة ماروخيتا وكونتشيتا وآنيتا وسغراريتو – فإنه كان يحدثها عن إقامته في لندن ، أو عن رحلته الأخيرة إلى بحار الجنوب . وإذا كان لا مناص من تسلية دونيا أسونتيون – والدة آسونثيونثيتا التي كانت مخلوقاً لطيفاً – فقد كان قادراً على أن يندسّ في أنبوب الضحك ذاته .

* * *

(٥)

ساد البلدة ذلك المساء ترقب حقيقي . فبين دون نوت البحار الأول في السفينة النرويجية كريستينا الراسية في الخليج منذ أيام عدّة وصديق آنسلمو القديم – وبين دون آنسلمو عقد رهان وتحدّ غريب : زجاجة ويسكي من جهة ، وأكلة جزيلة من جراد البحر من جهة أخرى ، لمعرفة أيّ الرجلين أمهر في إصابة الأهداف في برّاكة الدومنيكاني التي ظلّت تديرها بيترا زوج عنصر الحرس المدني ، لمدّة سنوات طويلة وحتى وفاتها .

لمّا ظهر دون نوت ودون آنسلمو يتحادثان بودّ أمام برّاكة الدومينيكاني ، كان أخلاط من الناس بانتظارهما هناك . اختارا بندقيّتهما بأناة . وانتقيا بمزيد من الأناة – إن صحّ القول – سهامهما . السهام السود كانت من نصيب نوت ، والحمر من نصيب دون آنسلمو . تم ألقيا بقطعة نقدية في الهواء . وشرعا يرميان . خمس رميات متتابعات لكلّ منهما . بدأ الرميَ دون آنسلمو ، لأنّ دون نوت قال لما أُلقيَ بالقطعة النقدية في الهواء : طرّة . ولم يوفَق إلى قول نقش ، ولم تسفر القطعة عن طرّة . خمس رميات لدون آنسلمو خمسة أهداف . ارم ، يا دون نوت! كان الدومينيكاني يصيح

وهو يقف نازعاً سهام دون أنسلمو الحمرَ بسرعة عجيبة ورمى دون نوت : خمس رميات خمسة أهداف . ارمِ ، دون آنسلمو! ردّد الدومينيكاني حينما كان ينزع سهام دون نوت الخمسة . ورمى دون آنسلمو مرة أخرى ، وأصاب خمسة أهداف أيضاً . وصاح الدومينيكاني مرة أخرى ؛ ورفع دون نوت البندقية إلى مستوى وجهه... وحقّق خمسة أهداف... كان اهتمام الجمهور يختلط بالانفعال . فقد استمر الرمي مدّة طويلة . وتبادل الرجلان الرمي على نحو يائس حتى أصابا خمسة وثلاثين هدفاً . ارم ، يا دون آنسلمو صاح الدومينيكاني . لا يعرف أحد كيف حدث ذلك ، رفع دون أنسلمو البندقية إلى وجهه ورمى... وانغرز السهم في عين الدومينيكاني اليمنى . ورفع هذا الأخير يديه إلى وجهه الدامي ، وانفجر الناس صارخين ، وشرعت النساء يركضن ، وقد اضطرّ دون آنسلمو إلى أن يرحل عن البلدة تلك الليلة ذاتها لمدّة شهرين نزولاً على نصيحة أصدقائه . وأبحر على متن الكريستينا التي كانت تقلّ حمولة من القصدير من تيّبيس إلى الهافر متحدثاً مع دون نوت عن الحدث المؤسف .

جاء أحد بحّارة السفينة ولمّا يمض على الحادث ثلاث ساعات إلى بيت الدون خورخيتو حاملاً من دون آنسلمو كيساً صغيراً من الجلد فيه عشرون (دورو) حتى تُسلّم للدومينيكاني . ما قام به دون آنسلمو أحدث انطباعاً سعيداً في نفوس أهالي القرية . وإذا كان الناس أصبحوا لا يتذكرون عين الدومينيكاني فما زال فيها من يذكر نقود دون آنسلمو العشرين .

* * *

٦

رحل دون آنسلمو لمدة شهرين لكنه أبطأ ثمانية أعوام حتى ظهر في القرية . فمن الهافر حيث ألقت به السفينة كريستينا ، انطلق إلى أميركة . وهناك استطاع ببعض الوفور الضئيلة أولاً ، وبمساعدة الحرب بعد ذلك ، أن يشق طريقه ويخلق لنفسه مركزاً مميزاً تقريباً .

لما عاد إلى هنا كان صار أسمر البشرة ومتزوّجاً بامرأة من بورتوريكو وبصحبة زنجيّتين وببغائين أخضرين أحمرين . كان يتكلّم بلكنة أهالي الأنتيل الحلوة البطيئة كحرارة المناطق المدارية . إنها بضاعة ما وراء البحار .

أصبح الدومينيكاني الذي ركب جناحي طائر بالدوروات العشرين ، لا يتذكره أحد في البلدة ، وصار دون آنسلمو مرة أخرى وبصورة أقوى مما كان في المرة السابقة موضوع الأحاديث كلها ، حتى شعر دون خورخيتو بالإهانة لأن الناس في رأيه يولون دون آنسلمو أهمية أكبر من التي يولونها معاهدة الصلح التي هي أهم بكثير...

لكن ما لبثت زوجه البورتوريكية أن ماتت بعيد وصولها إسبانيا ، لدى ولادة توأم ، لأنّها لم تلقَ رعاية جيدة ، حسب دون آنسلمو . لكن المصائب لا تظهر فرادى وإنما تأتي تباعاً وكأنها على ميعاد ، حسب دون آنسلمو

أيضاً . فقد أصبح الببغاءان ذات يوم وقد اغتالتهما بشراسة خينوبيبا قطة الفندق لاكونتشا ، وأصيبت الزنجيّتان بالرشح وماتتا الواحدة بعد الأخرى بفارق زمني ضئيل . وأصبح دون آنسلمو مرة أخرى وحيداً كما كان منذ ثماني سنوات .

مرت عليه فترة من الوجوم ما كان ينبس خلالها ببنت شفة تقريباً ، ويكاد لا يبرح بيته . لكنه رجل ذو طباع قوية ، فسرعان ما استعاد عافيته ، وعاد إلى حياته في النادي ، وعاد إلى المجتمع . فكان يقوم من حين لآخر بجولة في البلدات ويصل حتى بيغو ، أو حتى بورتو ولاكورونيا في أحيان أخر . وعند عودته كان يُلحظ عليه السرور والانشراح دائماً . لكنه عاد ذات يوم أبكر مما هو مألوف كثيراً في تلك التنزهات ؛ وانزوى في النادي ولجأ إلى خرس مطلق . أما الشيء الوحيد الذي كان يُنتزع منه فهو أنه لن يغادر البلدة بعد اليوم أبداً .

لا يدري أحد ما جرى له سواي ، لأنه لم يفصح عن ذلك لأحد آخر غيري . أما وأن دون آنسلمو قد مات ، وأن ما حدث لا يمكن إلا أن يزيد في التقدير له ، فإني أجد نفسي في حلّ من الحفاظ على السر ، وهو نفسه لم يطلب مني صيانته ولو طلب ذلك لما بُحتُ به لأي سبب كان . وسأسمح لنفسي بأن أقصّ بكلمات مختصرة ما قصه عليّ كيما أنهي حديثي .

* * *

٧

كان دون آنسلمو سافر إلى ثيسوريث . وتعشّى متأخراً جداً في محل كاستانيو في المرفأ . ثم عبر الجسر تجذبه الأضواء القليلة في الجانب الآخر منه ، وقريباً من براكات عيد قديس المدينة الذي كان يُحتفل به تلك الأثناء في ذلك المكان . كان الناس قد انصرفوا إلى بيوتهم ، ولم يتخلّف عنهم سوى بحّار شبه سكران ، أو شاب أحبّ أن يتسلّى بالرمي على الأهداف ؛ أو حاول دون توفيق أن يرمي حلقات في عنق زجاجة من السيدر . وكانت تصعد من الخليج شابورة رطبة ودافئة تلفّ كل شيء . وكانت آخر الأصوات التي يطلقها أصحاب المحلآت معلنة عن البضائع أو عن خدماتها ، تتعالى حزينة قليلاً ومُتعبة ، وتذكّر – ولا يدري دون آنسلمو ما السبب – بأصوات الحرس الليلي في سانتياغو معلنة عن وقوع المطر ، أو حلول الساعة الثانية صباحاً .

أحب دون آنسلمو قبل أن يأوي إلى فراشه ، أن يدخل كل الأكواخ الموجودة ، فلعب بالرمي قليلاً ، وتعرّف على المرأة ذات اللحية ، وأخرج زجاجة من السيدر أهداها ، إزاء دهشة المرأة ، إلى صاحب المحل... كان يشعر بالضجر وعزم على زيارة آخر ما ينبغي له أن يراه : حجرة الرجل – الوحش ، الذي كانت تعلن عنه بأصوات حادّة امرأة قميئة في أقصى شارع

البراكات المزدوج . دفع عشرين سنتيماً لأنه أُعطي حق الأفضلية ، ودخل . لم يجد في الحجرة أحداً... لكن ، ما هي إلا لحظة حتى سمع عواء ، ثم ظهر الرجل الوحش فوراً شبه عارٍ يغطيه الشعر فقط . وراح يقذف بنفسه على القضبان وينهش لحماً نيئاً . نظر دون آنسلمو إليه بإمعان وشعر بالهلع . ظلّ الوحش يقفز ويعوي ، وكان يبدو قليل الاحتفاء بالسيد دون آنسلمو . ومع ذلك ، لم يُبد هذا الأخير أماراتٍ إلى رغبته في الانصراف . وبدا أن الرجل الوحش قد تخلّى عن شراسته لفرط ما قام به من القفز تلك الليلة . وراح ينظر إليه بعد أن كفّ عن الحركة . واستند بكلتا يديه إلى القضبان ، ونظر بعينه الوحيدة – العين اليسرى – إلى دون آنسلمو .

– عجباً ، يا سيد آنسلمو! لشد ما صرت سميناً!

وما كان دون آنسلمو يعلم ماذا يقول .

– وما أجمل اللون الذي اكتسبته!

كان دون آنسلمو يرتجف . وحسب اعترافه ذاته ، بكى لأول مرّة في حياته ، لأنه تحقق من أن الناس ليسوا بالسوء الذي يُراد لهم أن يوصموا به . وبرز الرجل الوحش من وراء ستارة الكريتون التي كانت تستعمل خلفيّة للقفص ، وجلس قرب دون آنسلمو .

– الحقيقة ، لا أعلم ماذا أقول لك . لكن ، ها أنت ترى...

وما كان دون آنسلمو يعلم ماذا يقول هو الآخر أيضاً . أمسك يدي الرجل الوحش وداعبهما ، وأجهش هذا الأخير بالبكاء .

– سبق أن قلت ، يا دون آنسلمو : عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم... أكسب أكثر من ذي قبل . وها أنت ذا ترى أني بهذا اللحم الذي آكله ازداد سمنة .

خارج البرّاكة ، كان الثلج والصمت يغلّفان كل شيء .
وكانت عينا دون آنسلمو تغرورقان بالدموع كلما تذكّره .

مرثيلو بريتو

ظلّت القصة مدار حديث البلدة خلال شهور كثيرة .

ذلك أن مرْثيلو بريتو الخلاسيَ البرتغاليَ ومغنيَ الأغاني الشعبية والأميَ ، والعاطفيَ والنافخ في الزجاج وذا اللون الكابي : لونِ القهوة بالحليب ، والبسمة الدائمة المرّة والنظرة المؤثرة المتعبة ، نظرة حيوان أليف ، كان قد خرج من السجن . وكان حينئذ قارب الأربعين ، وخلّف في السجن – كما كان يقول – سنيّه العشر الأخيرة الذاوية الرتيبة التي اقتصر عمله خلالها على صنع نسخة من السفينة سانتاماريا ، وإدخالها بنحو لا يُصدّق داخل قنينة من الزجاج الأخضر أهداها – والله وحده يعلم السبب مع تقديم ذي إيقاع مكت أحد عشر شهراً في نسخه من نموذج كتبه له خطاط كبير مجهول ، إلى أليخاندرو محاميه نفسه الذي لم ينجح في إقناع القاضي ببراءته . لأن مَرْثيلو بريتو – لعلمك – كان بريئاً . لم يكن هو من ضرب بالبلطة زوجه مارتا على أمّ رأسها . لم يكن هو وإنما السيدة خوستينا حماته أم مارتا . أمّا أنه كان يبدو الفاعل ، وكان سواء لدى القاضي إن كان هو الفاعل أم غيره ، فقد أُرسل إلى السجن ومكث فيه عشر سنين تقريباً ، مُدخلاً أمراس سنتاماريا وحبالها وشراعها عبر عنق الزجاجة مستعيناً على ذلك بملاقط كبيرة . وكان يضع على السرير صورة زوجه المرحومة مارتا مرتدية بزّة خضراء وحاملة باقة من أزهار الليمون بيدها . وحسبما حكى لي

خوسيه مارتينيس كاليبيت شريكه في الزنزانة ، الذي تعرفت عليه بمرور الوقت في بيتانسوس في مهرجان كانيروس ، بأن انفعاله إذا رآها ، كان يبلغ مبلغاً يضطرّنا إلى إخفاء الزجاجة والسفينة داخلها خشية أن يضيع عمله كلّه بتحطيمه ، في لحظة غياب الوعي ، الشيء الوحيد الذي كان يسليه . ثم إنه كان يقلب صورة زوجه باتجاه الحائط ، ويبقيها على هذا الوضع ثلاثة أيام أو أربعة ، إلى أن تزول عنه ثورة الغضب فيعيدها سيرتها الأولى . حينئذ كان يغمرها ، بالمعنى المادي للكلمة بالقبلات ، بنشوة كبرى حتى ينهار منبطحاً فوق حشيّة من التبن . ويلبث على هذا الوضع على الأرجح ثلاث ساعات متتاليات أو أربع وهو يبكي كالطفل .

ذات مرة ، قصد السجن في رحلة دراسية مجموعة من صغار المحامين المتخرّجين حديثاً ، والجادّين الأدعياء كطلاب مدرسة دينية في آخر سنة دراسية لهم . كانوا يتحدثون بيقين عن علم الإجرام المرضي ، فلا يجدون شيئاً في نصابه . وشاءت العناية الإلهية أن يكونوا شهوداً على إحدى أزمات مَرْثيلو . فاندفعوا يدلون بآرائهم دون أن يسألهم أحد شيئاً ، حول ما كانوا يسمّونه السمات المميّزة للمجرم بالفطرة ، مبرهنين بشكل لا يُدحض حسب زعمهم ، النظرية التي تقول إن ثورات الخلاسي لم تكن غير تعبير عن الندم الذي يعانيه لأنه حصد في عمر الورود – وهي جملة أحد المحامين الزائرين – حياة امرأة كان أحبها في زمن سابق . انصرف المحامون مبتسمين ابتسامة الرضا وعلى وجوههم علائم النصر . ولطالما سألت نفسي ما كان قول هؤلاء لو أتيح لهم أن يعلموا ما صرنا أخيراً نعلمه جميعاً أن مارتا المسكينة لم تذهب إلى العالم الآخر ورأسها مربوط بالضمائد لترميم ما لم يقم به زوجها ، أوعلى الأغلب ، ما كان يفكّر في القيام به .

إن تفسير المشاعر معقّد ، لأننا لا نريده أن يكون سهلاً ، ومن غير

تعقيده ، لن يكون بوسع كثير من الناس ممن نحييهم بفخر ، وبشيء من الحسد ، وبشيء آخر من الإعجاب ، ونفسح لهم الجانب الأيمن إذا لقيناهم في الشارع ، أن يشتروا سيارات ولا مذياعات ولا أقراطاً لنسائهم . أما نحن البسطاء – الذين ليس لدينا سيارة ولا مذياع ولا أقراط نهديها ، ولا نساء في نهاية المطاف ، نهدي إليهن شيئاً . فلأي شيء نريد أن نعقّد الأمور التي ما إن تكفّ عن أن تكون بسيطة حتى يصعب علينا فهمها ؟ وسوف تسأل نفسك لِمَ ابتسم حين أقول قولي هذا : أنت تسأل نفسك هذا السؤال لأنك ببساطة لا تفسّر مشاعر الآخر ، وهي مشاعري في هذه الحالة ؛ وقد تحسب أني أبتسم لأضفي الغموض على نفسي ، ولألقي على روحك ظلاً من الشك حول بساطتي . لكني أستطيع أن أقسم لك بما تحبّ . أني إذا كنت أبتسم ، فلا لشيء إلا خشية أن أقتنع أني لا أفهم الأشياء إذا دارت في رأسي دورتين .

ابتسامتي ليست في أي حال ابتسامة يحسب طفل إذا رآني ابتسمها أنه يفهم مغزاها . ابتسامتي ما هي إلا علامة عجزي ، هذا العجز الذي أحبّه لأنه عجزي ولأنه بسيط ، ولأنه يجعلني أبكي وأغضب دون خجل من ذلك ، وإن ظنّ المحامون أني أبكي وأغضب لأني تخلّيت عن أن أكون بسيطاً ، لأني قتلت – ومن يدري إن كان بضربة فأس على الرأس – بساطتي وبراءتي اللتين استعدتهما لما صرت عجوزاً كأنهما كنز تمين . ما أستطيع تأكيده هو أن بكاء التعيس البرتغالي لم يكن ناجماً عن الندم إطلاقاً . لأن الندم لا يمكن أن ينجم بأي حال عن شيء لا يمكن للمرء أن يندم عليه لأنه لم يقم به : بكاء مَرْثيلو لم يكن إلا لأنه فقد ما لم يرغب في فقده قط . بل كان يحبه حباً كبيراً ، أكبر من حبّه كلّ شيء في الكون : أكبر من حبّه أمّه . والبرتغال والأغاني الشعبية ، وغُصيّة نفخ الزجاج التي كان جلبها له وولف من بينا...

بكاء مرتيلو كان على مارتا لأنه أصبح لا يحظى بها ، لأنه لا يستطيع أن يحدثها ويقبلها كما كان يفعل من قبل ، لأنه لا يستطيع أن يغنّي معها على الغيتار بصوت مزدوج وبرزانة ، تلك الأغاني الحزينة التي غنّاها سنين خلت .

ستعذرني ، سيد دون كاميلو خوسيه ، على اضطرابي الشديد . لكن حديثي عن هذه الأشياء كلها هو كالنظر إلى الأطفال وهم يلعبون . فلا يهمّ المدى الذي يصلون إليه في لعبهم ، كما لا يهمّ النظر إلى الحفر التي حفرها الصغار على رمل الشاطئ لمعرفة أيها أعمق أو أضحل .

قلنا إذاً ، إنه لم يكن هو وإنما السيدة خوستينا حماته من عصف بسنّي مارتا الثلاث والعشرين . المسألة هي أن الحقيقة أبطأت حتى تكتشفت إبطاء الزمن بالعجوز ذاتها حتى ماتت ؛ لأن الشريرة التي كانت تخشى الموت ولا ريب ، حرصت أشدّ الحرص على الصمت دائماً حتى حينما كانت ترى صهرها في أشدّ المآزق حرجاً . وخفّف من وطأة الشرّ لديها أن خطر لها – لما حملها الشيطان – أن تترك رسالة مكتوبة كاشفة فيها عن الحقيقة . ولو لم تفعل ذلك لظلّ المسكين مرتيلو حتى يومنا هذا يضيف تفاصيل جديدة إلى سانتاماريا... كانت العجوز تنطوي على شرّ كبير ، فلم تقل لي الحقيقة ولم تقلها في لحظة الموت إلى كاهن الاعتراف ولا لأحد . فهي وإن كانت تصرخ صراخاً أن يؤخذ الاعتراف منها حسبما قيل ، فإنه يشقّ عليّ الاعتقاد أنها لم تكن هرطقية . المسألة – كما قلت – أنها تركت رسالة مكتوبة أقرّت فيها بما كان ، وأُخرج البريء من السجن مع كميّة كبيرة من ورق الإجراءات الرسمية ، على الأقلّ بحجم الأوراق لمّا أُدخل السجن . وإذْ كان نافخ زجاج ممتازاً ، وكان وولف يقدّره ، فقد التحق مرة أخرى بالمعمل الذي زيد فيه جناحان آنذاك . وبدأ يعمل ، وهو وإن لم يكن ثرياً فقد كان مستريح البال .

مرّ عامان دون طارئ جديد . وبعد هذا الوقت دُهشنا جميعاً من الخبر الذي يعلن أن مَرْتيلو بريتو تزوّج مرّة أخرى فراراً من الوحدة . كان مَرْثيلو بريتو المهمّش جداً والمبعد عن كل شيء عدا ما يحيط به ، كما كان منذ وقت قريب بعيداً أيضاً عن كل شيء ما خلا رفيقه خوسيه مارتينيث كالبيت ، يجد الوحدة قاسية جامحة جد ثقيلة ويصعب تحمّلها ، حتى عزم عزمه ، ربما بشيء من الخوف وبشيء آخر من الأنانية وإنْ كان لا يعي كثيراً معنى هذا الغرض الأخير ، ولكان رفضه لو علم حقيقته ، عزم على تنظيم أوراقه مرة أخرى (وقد زادت الآن بشهادة وفاة مارتا) ، وإقامة بيت جديد ، كما سيقول له الخوري دون رايموندو بصدد الزواج .

هذه المرة ، وقع اختياره على دولورِس بنت حارس معبر القطار الأرضي . فكر مرتيلو كثيراً قبل أن يُقدم ، ودفعه حذره خشية أن تتكرّر القصة الحزينة ، إلى حدٍ حمله على أن يخضع حماته الجديدة لمدة أشهر إلى أغرب التجارب وأصعبها . وقد كانت خاثينتا والدة دولورِس حمقاء ومغفّلة كالشاة . حماقة وغباء جعلاها تخرج ظافرة ، – والبراءة تنتصر دائماً آخر الأمر – ، من المطبّات والكمائن التي كان يقدّمها لها صهرها لاختبارها ، لكن ، دون سوء نيّة بالطبع .

كانت دولورس شابّة وجميلة ، وإن كانت ترمّلت من بحار آثر البحر أن يلتهمه . وكان ابنها الوحيد الذي رُزقت به منه في الرابعة من عمره حينئذ . وقد صدمه منذ عشرة أشهر ، أو أحد عشر شهراً قطار بضائع مرّ دون إنذار . ولا أدري إن كنتم تعلمون أن القطار إذا تبعه قطار آخر لم يُعلم حراس المعابر بمروره ، يُعلّق على عربة المؤخرة مصباح آخر للإنذار . لكن القطار المختلط الذي كان تقدّم قطار البضائع ، لم يكن يحمل مصباحاً . وإذا كان يحمله فقد كان مطفأ لأن أحداً لم يره . وما جرى هو أن دولورس لم تتنبّه إلى صغيرها . ومرّ قطار البضائع بوحداته الاثنتين والثلاثين فوقه وجعل

رأسه الصغير كورقة البكلاو . حدث هرج ومرج في البداية ، ثم لم يجرِ شيء آخر غير ما يجري دائماً لسوء الحظ : شُرِّحت جثة الضحيّة ، ووُضعت في نعش أبيض قُدِّم هذه المرّة هدية من الشركة . وأخيراً ووريت الثرى . ألقى المدير العام باللوم على رئيس المصلحة . ورئيس المصلحة على رئيس محطة إيسكلابيتود ، ورئيس محطة إيسكلابيتود على قائد القطار . وقائد القطار على الريح... والريح – واسمحوا لي أن أضحك – غير مسؤولة .

وإذْ كان العروسان أرملين ، فقد احتُفل بالزفاف دون جرسة . لأن البلدة – كما تعلمون ، رحيمة مشفقة كالأطفال . وكان مرتيلو ودولورس أجدر بالرحمة والشفقة من أي شيء آخر لفرط ما عاناه كلاهما . ومرت الأشهر . وما هو غير عام وبعض عامٍ من الزواج حتى رُزقا بطفل سمياه مرثيلو . وكانت تبعث على الإعجاب رؤيته سليماً معافى . كان مرثيلو الأب يشع فرحاً . ولما حان الصيف وأصبح للطفل بضعة أشهر من العمر ، كان يذهب كل يوم بعد فراغه من الشغل ، إلى ضفّة النهر بصحبة زوجه وابنه . كان الطفل يوضع فوق غطاء ، ويلهو مرثيلو وزوجه بلعبة البريسكا . وكانا يضيفان أيام الآحاد سجقاً وخمراً لطعام العصر ، ويصطحبان الغيتار من أجل الأغاني الشعبية . (بالأحرى غيتار آخر . لأن الغيتار الأول تحطّم ذات صباح لما جلست عليه خوستينا) .

كانت حياة الزوجين سعيدة . لم يكونا غنيّين ، لكنهما لم يكونا معوزين أيضاً . وبضمّ أجر مرثيلو إلى أجر دولورس التي بدأت تعمل في منشرةٍ في بستبالِس ، جمعا مبلغاً كافياً جعلهما لا يحسان بضغط الحاجة إلى المال . وكان الطفل ينمو كما ينمو الأطفال . لكنه سليم وواثق بنفسه وكأنه يغذّ الخطا ليستنفد الحياة الضئيلة التي كُتب عليه أن يعيشها على هذه الأرض .

نبتت أسنانه أولاً . تم أخذ يدرج خطوتين أو ثلاث خطوات . تم بدأ النطق ، وفي سنّ الخامسة كان مرتيلو الابن صبياً أسمر حسن القوام ، شفتاه حمراوان ومفلطحتان قليلاً ، وساقاه مستقيمتان مكتنزتان... لم يُصب بالحصبة ، ولم يمرض بالسعال الديكي ، ولم يعان أدنى عناء عند طلوع أسنانه...

ظل الأبوان على عهدهما باصطحابه - مع السجق والخمر والغيتار - لينعموا بالجلوس على عشب النهر أيام الأحد مساءً . وإذا تعبا من الغناء ، كانا يُخرجان ورق اللعب ويشرعان في لعب البريسكا ، كما كانا يفعلان منذ خمس سنوات خلت . ظل مرتيلو يولي زوجه روح النكتة الدائمة بأن يجعلها تكسب . وظلّت دولورس تولي زوجها روح الجدّ الدائم ، جد مضحك قليلاً حتى كان يبدو لمرتيلو - وهو العاطفي في أعماقه - ساحراً . وكان الطفل يخلع حذاءه ويشرع يركض فوق العشب الأخضر ، أو يهبط للعبث على رمل الضفة ، أو يضع قدميه في الماء مشمراً بناطيله المخملية إلى ما فوق ركبتيه .

لكن الشقاء كان يحيق بالمنكوب مرتيلو ، فحدث ذات يوم وهو ما أخذ الناس يقولون (بعد أن حدث وليس قبله) أنه كان يجب أن يحدث : فقد سقط الطفل ، أو انزلق أو زلت قدمه ، أو أصيب بالدوار ، (ولا يعلم أحد قط سوى الله كيف حدث ذلك بالضبط) وجرفه التيار وغرق .

والله يعلم ما عاناه الملاك الصغير! دون أنسلمو وحده هو الذي كان يعرف جيداً الذعر الذي يحس به المرء عند رؤيته نفسه محاطاً بالماء من كل جانب ؛ ويعلم وهو الذي تعرّض للغرق ثلاث مرات إحداها كانت خطيرة للغاية ، المخاوف التي تعتريه في كفاحه العاجز إزاء الماء ، فكان يعقب دائمًا بقشعريرة على نكبة مرتيلو الابن .

لم تُسمع صرخة واحدة . لم تُسمع أدنى شكوى . ولو صرخ الطفل ، يعلم الله ، لما سمعه أحد... لربما سمعته الأسماك وحدها ، والسراخس على الضفاف ، وجزيئات الماء... وهذا ما كان لينقذه أبداً . بلى ، سمعه الله وحده . وربما القديسون والملائكة الذين هم ، على الأغلب ، أطفال مثله ، من يعلم إن كانوا توقفوا بإرادة إلهية عند سنيّهم الخمس الأخيرة ، وإن هبّت على أجنحتهم رياح عاصفة خلال قرون طويلة . ظهرت الجثة أسيرة شبكة الطاحون قرب دجاجة نافقة لا يُعلم كم من الوقت مكثت هناك ، وما كان عثر عليها أحد لو لم يغرق الطفل البرتغالي ، ولكانت الدجاجة أخذت بالتعفّن والانحلال ببطء ، ولكانت صاحبتها ظلّت على شكّها في أن إحدى جاراتها سرقتها ، أو عابر السبيل الملثّم ذا اللحية الذي يحمل على عاتقه كل الأخطاء .

ولو لم يكن للطاحون شبكة لما عثر على الطفل أحد ، ومن يدري إن كان طُحن شيئاً فشيئاً وتحوّل إلى دقيق ناعم كدقيق الذرة ، وأكلناه فيما نأكل! ولكان قاضي التحقيق أقرّ بهزيمته ، ولربما كانت قالت دونيا خوليا التي كانت ذات حسّ ذوقي مرهف :

– ما أغربَ طعم هذا الخبز!

لكن ، ما كان التفت إليها أحد ، ولحسبنا ذلك إحدى غرائب دونيا خوليا .

* * *

١١

كان دون دافيد مكروباً غاية الكرب ، ولم أجده قطّ على هذا الوضع كما وجدته اليوم . وشعرت بشيء من تأنيب الضمير . ما كان أطيب المسكين دون دافيد! فهو لم يكن بحّاراً مثل دون آنسلمو ، ولا ذا كشبٍ وموارد مثل دون مرتلينو . بل كان موسوساً جداً ومدققاً جداً ومتحرياً تفاصيل كلّ ما يخصه . لم يكن حالماً ولا خيالياً ، وإنما هو امرؤ مصرّ على العيش مولياً الواقع ظهره ، وهو واقع ما انفكّ يجلد ظهره دون شفقة ولا تقدير . لشد ما خطّط لمشاريع ولقلّما رآها منجزة!

لبث دون دافيد فترة طويلة ورأسه منكّس فوق صدره ، ويده على ذراع المقعد ممسكاً بمبسم اللفافة ، وقبّعته الليّنة على عينيه . ولمّا أحسّ بالتعب من هذه الجلسة ، ألقى بالقبّعة إلى الخلف ورفع رأسه ومصّ أنفاساً سريعة قصيرة من اللفافة ، وراح ينظر إليّ بإمعان ، وكأنه دهِشٌ من أنه استطاع أن يقصّ علي دفعة واحدة كل الأشياء التي قالها لي ، دون أن يأبه بالرماد المبعثر على سترته . ومن عساه يذكره به .

كانت تتلألأ في عينيه الرماديتين الصغيرتين الدموع التي أثارتها ذكرى تعاسته ، ثمّ اضطربت هنيهة بتأثير رقّة الجفن العصبية ، وتدحرجت على

خديه نقيّة صافية نقاء وصفاء يثيران الخوف . ثم ابتسم وكأنه يعتذر .

– اعذرني ، يا سيدي!

أنا لا مأخذ لي عليه كيما أعذره . بل هو كان من ينبغي له أن يعذرني . كان عليه أن يعذرني لأني أوليته اهتمامي ، وهو شيء لم يفعله أحد ، على الأغلب ، منذ سنين طوال ، ومن يدري إن كان إشفاقاً عليه . كان عليه أن يعذرني لأني أعرت ذكرياته الحزينة انتباهاً ؛ أن يعذرني لأني لم أقاطعه وأحيد بالحديث إلى جهة أخرى... لكن ، ماذا بوسعنا أن نصنع! فما باليد حيلة . لقد أوليته اهتمامي ، وأعرته انتباهي ، ولم أقاطعه! بل لم أستطع مقاطعته . كنت أعلم أن الكلام عمّا كان يتكلم عنه كان يجعله يعاني . لكنه جزائي على قسوتي المحتملة أنه جعلني أعاني أيضاً ، وهذا ما لاحظه دون دافيد . لشد ما كان يشعر المسكين بالعزاء عن حزنه بنقله إليّ وإن يكن على دفعات صغيرات كما كان يفعل ، وكأنه كان يخشى أن يجرحني في الصميم جرحاً بليغاً بأحزانه!

خطا دون دافيد خطوات صغيرات في القاعة وراح ينظر بإمعان خلال فترة طويلة خلال ألوح زجاج الرواق ، صوب البحر القاتم والأخرس كالميت . والله وحده يعلم ما الصور القاتمة التي جلبتها الأمواج في كرّها وفرّها إلى روحه تلك الليلة . اقترحت عليه أن أرافقه إلى بيته ، لكنه رجاني ألا أفعل ، وهذا أمر غريب منه ، لأنه كان ينفر من الوحدة . ثم علمت بعد ذلك أنه أتى محلّ حلاقة بنيامين قبل أن يذهب إلى منزله ويستلقي على سرير الزوجية العريض المصنوع من أجود أخشاب الكاؤوبا المعمّرة ، والمرصّع بالبرونز .

كان يجتمع في محل حلاقة بنيامين أو شاب من الناس لعزف الغيتار وشرب الخمر الأحمر . ولما وصل دن دافيد وقفوا جميعاً احتراماً له .

– أهلاً ، دون دافيد! هذا شرف كبير لنا أن تكون بيننا!

– اجلسوا ، اجلسوا جميعاً...

– كما ترى ، سيد دون دافيد ، نجتمع كل ليلة هنا لنقتل التعب... نحن فقراء جداً .

وقد اضطروا كما قيل – إلى نقل دون دافيد إلى البيت محمولاً في وقت متأخر جداً من الفجر وقد غرق في السكر... أسفي عليك ، دون دافيد! أتشرب لتنسى كما تشرب الخادمات في وكر الحلاقة ذاك ، أسفي على عمرك ووسوستك ، وتمحيصك تفاصيل كل شيء ؟!

* * *

٣

كانت حلم حياتي الأول والكبير . - بدأ دون دافيد - كانت في الخامسة والعشرين أي في سنّها الذهبية!

أعددت كلّ شيء بعناية ، وكأني كنت أخشى أن إهمال أدنى تفصيل قد يؤدي بخططي إلى الانهيار . أنا لست متطيّراً . لكن .... لم أُعن في بعض الأحايين ، بالأشياء عناية وكأنّ بي خشية من أني أعيق مسارها ، أو أن تجلب التعاسة عليّ مخالفتها ؟ أمرت بشراء السرير من محلّ جيمس كلارك وإخوته في لندن . كان كبيراً ، كبيراً جداً ومصنوعاً من خير أخشاب الكاؤوبا المعمّرة ، ومرصّعاً بالبرونز . ليتك رأيت الحبّ الذي أودعته في طلبه! قطع الأثاث الأُخَرْ صنعتها بنفسي : بعضها صنعته صنعاً كاملاً . وبعضها الآخر رسمت مخططه فقط . ورشتي الصغيرة ورشة هواة لا تمتلك الشروط التي تمكّنها من صنع الأثاث الكبير . فكلّفت بصنعها دومنْغيت النجّار ذا الشهرة العريضة في سنتياغو . ولعلك سمعت من أبويك عنه .

لبثت في إنجاز هذا أو ذاك حوالي سنة . وقد تأنّقت كثيراً في صنع هذا الأثاث الذي سيمسي شاهداً - ويا لحزني - على سعادتي الأرضية ؛ وكان الشغل به يبدّد أوقات فراغي ويعوّضني جزئياً عن ابتعادي القسري عنها .

لأنها كانت في سنتياغو . وما أبعدها وهي على مسافة أربعين كيلومتراً عني فقط! وما كان أشدّ معاناة المسكينة ماتيلده من فراقنا! كنت أركب قطار (ذاويست) كلّ أحد لألقاها ؛ وأعود صباح الاثنين سعيداً ومغموماً في آن واحد جالباً من سنتياغو منديلاً صغيراً وقد عبقت رائحتها به ، وأزهار بنفسج كانت تضعها على صدرها كفراشات على زهر ؛ أو خصيلة من شعرها الكستنائي ، أو أي شيء آخر يكون صالحاً ليمدّ حبّنا بالغذاء مدى سبعة أيام من الغياب الجبري .

ذلك الحب كان حباً حقيقياً ، يا دون كاميلو خوسيه! فكيف تريد أن تحملني على الاعتقاد بأن شبّان اليوم يمكن لهم أن يحبّوا بعضهم بعضاً الحب الجميل ذاته كما كان يفعل آباؤهم ؟ لا ، هذا محال من كلّ جانب . تلك كانت أزمان أخر ؛ نظرة أو ابتسامة ، ولا أقول قبلة ، كانت تغمر بالسعادة أشدّ المحبين تطلّعاً وإلحاحاً . واليوم ، ها أنت ذا ترى يا سيد! ما الحلم الذي يستطيع أن يحلمه هؤلاء الشبّان من كلا الجنسين الذين يقضون الصباح وهم يقفزون نصف عراة على رمل الشاطئ ؟

زفافنا كان مدار حديث المنطقة كلّها . وقد أنفقت أمّي المسكينة ، وهي امرأة تقية ، كلّ مدّخراتها . وكان لا بدّ للحفلة من أن تكون ألمع حفلة عقدت ذلك الوقت . ولا أبالغ إذا قارنتها بعرس ماريا بيرتا بنت المركيزين ن...!

ما كان جلدي يسعني من البهجة ، فلبثت بعد الزواج عشرين يوماً على الأقل ، دون أن أعي شيئاً من حولي ، وكأن دماغي امتُصّ امتصاصاً ، وفارقتني الرغبة في العمل ووقعت فريسة مزيج رهيب ومضن من الغمّ والفرح . كنت أقضي الساعات وأنا أفكر في ماتيلده حتى ولو كانت أمامي وأستطيع لمسها بيدي . فكنت أوثر أن أتخيلها مغلّفة بالسرّ ونائية كأنها نورس أو سحابة بعيدة . وإذا ما سرت في الشارع مستقيم القامة ، كنت

أحس برضا كبير ناظراً إلى نفسي وقد عكست صورتي في واجهات المحلاّت أو مرايا مقهى كومِرْثيو . وإذا ما مرّ قربي صديق ما وسها عن تحيتي ، كنت ألفت انتباهه بفرح لأتجنّب تأنيب الضمير لأني لم أجعله شريكاً لي في الفرح . هكذا كان وضعي تلك الأيام! وأضيفت إلى الخصال الحميدة التي لاحظتها عند ماتيلده عازباً خصالٌ أخر وجدتها عندها بعد الزواج . كانت طيّبة ، نظيفة مشفقة وذات يدٍ صناع . وكانت مدبّرة بحكمة وترعاني بدلال . يا للمسكينة ماتيلده! ما كان أسرع مشيئة الله بإبعادها عن وادي الدموع هذا!

كان مضى على زواجنا خمسة أشهر لمّا شرعت في صنع مهد . طفت روما وسنتياغو بحثاً عن خير الأخشاب وأخفّها وزناً ، واشتغلت بها بهمّة ونظام لا تستطيع أن تتخيلهما . أنفقت ثلاثة أشهر في نحت السرير ونجره ، ثم غطيته بموسيلين شفيف ذي لون أزرق سماوي ، طرّزت ماتيلده فوقه حلية على شكل ورود بيض وزهرية لتحجب عقد الهيكل .

وقد صنعت الحشيّة بيدي أيضاً . بالأحرى حشيّتين : إحداهما كبيرة وعميقة من شعر عرف الفرس ؛ وأخرى صغيرة من الريش توضع فوق الأولى... ولا تقل لي كيف اخترت الريش . والآن أضحك من نفسي متذكراً الجهد الذي بذلته . الريش مسألة خادعة جداً . فإذا ما حسب المرء أنه حصل على كمية كافية منه ، بل فائضة ، يجد نفسه أنه لم يحصل على نصف الكمية المطلوبة .

وما كان عليّ غير الانتظار بعد أن فرغت من صنع السرير ، وإن كنت أضيف إليه كلّ يوم تفاصيل جديدة . في البدء ، فرضت على نفسي الصبر والهدوء . لكني أخذت أفقدهما بمرور الوقت شيئاً فشيئاً إلى أن خامرني الشك في أن الله يريد أن يمتحنني ، ولمكافحة هذه الحماقة التي كانت

تغزوني ، انكببت على نحت قلبين على لويح رقيق فاض عني ، ونقشت عليهما الحرفين الأولين من اسم القادم المنتظر . ولا تجعلني أقل : ابني . نقشت حرف M إن كان المولود بنتاً . وحرف D إذا شاء الله أن يكون ذكراً . حرف M نقشته بحرف إنكليزي يخترقه غصن صغير . و D بحرف غوطي مستند إلى بويق ومجداف .

كان ذلك عام ١٩١٨ الذي غرز ذكرى حزينة في نفوس عائلات غليتسية كثيرة . كانت ماتيلده حاملاً في الشهر الثامن لما أصيبت بالكريب ، ذلك الكريب المتشؤوم الذي ملأ بالحزن والألم كثيراً من البيوت المنكوبة . و أصبحت لا حول ولا قوة لي . وكنت أرى الأيام تمرّ ، وأرى زوجي لا يتحسّن وضعها في شيء . وكنت أرى دنوّ لحظة... وما كان أقسى تلك الأيام ، يا صديقي! لا تستطيع أن تتصور ما كنت أعانيه . كنت أبدو كمن يتوقع ماذا سيحدث ، وما حدث في النهاية ، وكان لا مناص من أن يحدث .

كنت في الغرفة المجاورة جالساً على صوفا لا أدري لماذا بدت لي في تلك المناسبة مريحة على شكل غير معهود ، أنت لا تستطيع أن تتخيّل مقدار الأشياء التي كنت أفكر فيها تلك اللحظات... وبعضها لم يكن على صلة بالوضع الراهن ، وكان يثير فيّ غمّاً كبيراً ازدحامها .

كنت أشعل اللفائف بعصبية واحدة إثر أخرى . وكنت ألقي بها ما إن أدخن نصفها ، على الأرض أو على الجدران . وليت أمي رأتني ألقي بها على الأرض! ما كانت الساعة تتحرك وكنت أنظر إليها من حين لآخر ، وأقصى ما استطاعت أن تتقدمه كان خمس دقائق . كنت في توتّر رهيب . وكان الطبيب دون أليخاندرو يخرج من حين لآخر ويردّد عليّ دائماً الكلام ذاته .

– تشجّع ، يا فتى! لا يمكن للأمر أن يكون أفضل مما هو عليه .

لكن كلمات الطبيب لم تكن تطمئنني .

وظللت أدخن اللفائف ؛ وظلت الأفكار المعذّبة تغزوني... أتذكّر لحظة رحت فيها أنظر إلى البحر . وخيل إليَ أن الأمواج توابيت .

وبعد فترة كانت أطول من سابقاتها ، قاطعني دون أليخاندرو بصوته الهادر ، يدعوني إليه . فالتفتُ . كان يقف وسط الغرفة وهو يضع نظّارته في غلافها . ولما فرغ من ذلك ، جاء صوبي ووضع يداً على كتفي وقال لي مشفقاً تقريباً :

– دافيد... ما تزال شاباً!

– لا تكمل ، دون أليخاندرو .

* * *

لم أشأ أن أعرف المزيد . احتبست في مكتبي . وتولى أخي الأكبر إنريكه الأمر كلّه ، أؤكد لك أنني لو فقدت تلك اللحظة إيماني بالله لثانية واحدة – وقد شاء سان خوسيه ألا يحدث ذلك – لما عشت زمناً طويلاً بعد موت المسكينة ماتيلده . ومنذ ذلك الحين أسير دائماً في بيتي تائهاً . والمهد المصنوع من خير الأخشاب وأرقّها والذي لبثت في صنعه بهمّة ونشاط كما لا يمكنك أن تتصور ، ما يزال شاغراً . أما السرير المصنوع من الكاؤوبا الجيدة المعمّرة ، والمرصّع بالبرونز والذي أوصيت بجلبه – وليتك تعلم بأي حبّ – من محل جيمس كلارك إخوان في لندن ، فنصفه يفيض عن الحاجة .

* * *

قضت كاتالينيتا ساعات عدة عازفة على البيانو .

اعزفي هذا الفالس

اعزفي هذا الفالس

اعزفي هذا الفالس ،

بيبيتا .

وكان الشمعدان يقفز خائفاً ، ورأس بيتهوفن المصنوع من الجص الملوّن بلون برونزي يقطب حاجبيه أكثر مما هو مألوف .

اعزفي هذا الفالس

اعزفي هذا الفالس ،

إنه حلم حياتي الوحيد .

كانت كاتالينيتا تردد هذا الفالس دائماً . وما كان أحسن صنعها بذلك! فقد كان حل الربيع ، الفصل الذي كانت علّقتْ كلّ آمالها عليه . وكان الجلبان العطر الذي يتسلق الشرفة والبنفسج الذي يغطي أرض الحديقة يعطّران برائحتهما كلّ أرجاء البيت ؛ كانت الرائحة تعبق بمخدعها ذي المزينة والسرير الأنيق حتى صار يشبه جندولاً ؛ تعبق بغرفة الاستقبال ذات المشاجب التي كانت تثير فيها فزعاً كبيراً ، ولا تعلم سبب وجودها هناك ؛ وتعبق بالقاعة الصغيرة ذات المقاعد الواطئة المبطّنة بنسيج خشن ؛ كانت

الرائحة ذاتها تعبق بغرفة المعيشة التي يوجد فيها طاولة لتقطيع اللحم ذات مرآة بيضوية التشكل ؛ وتعبق حتى بالممر الذي كان يحوي لوحات زيتية إنكليزية معلّقة على الجدران ، وبالسلم المحمول المزركش بخيوط القيطاني المخملية الزرق التي تنتهي بكريّة جميلة تحوي شتى الألوان .

كانت نافذة الشرفة مفتوحة ؛ وكانت قضبانها المصنوعة بفن غريب ، والمشغولة كأنها طرحة تسمح برؤية الشارع الخالي من الأرصفة ، والعتيبيات النامية بين بلاطه ، والبيوت الصغيرة المغطاة بالطحالب ، وبيوت النبلاء العالية بالأعشاب المتسلقة وكأنها تتباهى بنفسها . وكان البحر يُرى من فوق البيوت ، من فوق الأسطحة التي تعلو وتنخفض كأنها نوتات فالس لشوبان على السلم الموسيقي ، وهو في حالة توازن دون أن يقع ، دون أن ينسكب ، زرقته تمتدّ على مدى البصر وتنتشر فيه السفن التجارية التي جعلها التقدم ، تتضاعف عدداً ، والقوارب الشراعية الملأى ببخارة عاديين جداً ؛ البحر وإنكلترا في الجانب الاخر منه ، والصخور الناتئة الموحشة جهة سان بدرو ، والبقع الخضر المربّعة كالمروج كما في غيسامو : البحر الذي سيقدم منه المحبوب المنتظر ذات يوم أو اخر ليتزوجها .

اعزفي هذا الفالس

اعزفي هذا الفالس...

وكانت كاتالينيتا تتابع غناءها ؛ وكانت هذه الأفكار تثير خجلها...

إنه حلم حياتي الوحيد .

بوم! بوم! بوم!

وكانت تضرب البيانو بيدها وتضحك ، ضحكة بلّورية ترنّ في كل أنحاء البيت حتى تختبئ أصداؤها الأخيرة بين مرايا القاعة المذهبة ، وبين طيّات إطار صورة أمّها التي رسمها روسالس...

أمّا أمها فكانت تجلس في الرواق الواقع على الجانب الآخر من البيت وتطرّز ، لتُشغل نفسها ، مخدة .

- بنيّتي!

- نعم ، يا أمي!

- لا تلهي ، وانكبّي على العزف!

وكانت كاتالينيتا تلبث هنيهة متفكرة ؛ وتبتسم من السعادة ، وتجري مرة أخرى بيديها الصغيرتين البيضاوين على مفاتيح النغم .

كانت نافذة الشرفة مغطاة بستارة شفيفة مشمورة من كلا الجانبين كأنها متدّ نسائي مقلوب : كانت الستارة تضفي جواً غريباً على القاعة الصغيرة حتى تصبح أشبه بغرفة عروسين... وكان الهواء يبدو كأنما يمرّ عبر مرشّح ، عذباً عطراً كخصلة من الشعر . وكان النور يفقد أثناء مروره خلال الستارة الشفيفة عنفه وقوّته ليصبح حميماً كالحضن . ما أحسن جلستها إلى البيانو في القاعة عازفة فالسات ومزيداً من الفالسات دون توقّف! كانت سعيدة أقصى ما يمكنها أن تأمله من السعادة .

ويا للبحر! هو سيقدم مبحراً على متن المركب (خوبين ماريا) الذي كانت تميّزه من أشرعته وسواريه العالية ، فلا يمكن لها أن تخلط بينه وبين المراكب الشراعية الأخرى . فلم يدخل المرفأ مركب آخر شبيه به ونظير له ، حتى ولا (الزافير) مركب السمك الفرنسي الرشيق ، الذي يرسو من حين لاخر هنا ، له سوارٍ وأشرعة مثل سواريه وأشرعته... وكانت خوبين ماريا تبدو من بعيد كنورس أبيض يطير على مستوى رؤوس الأمواج ، أو كقطعة من ضباب يدفعها النسيم البحري صوب اليابسة ، أو كمنديل وضع على مرآة ليجف في الشمس .

اعزفي هذا الفالس

اعزفي هذا الفالس...

وكانت كاتالينيتا تعزف وتعزف ، وتغنّي وتغنّي مفعمة بالسرور ، البحر! وخوبين ماريا! وهو!

إنه حلم حياتي الوحيد .

كان أنيقاً جداً ، وسيّداً كبيراً حسن المنظر . كان في الخامسة والثلاثين من عمره ، وهو العمر الذي ينبغي للرجال جميعاً أن يبلغوه . وكان أشقر ذا عينين زرقاوين حالمتين وطويلاً نحيلاً ككل البحارة الأصلاء . كانت له لحية جميلة دقيقة أطرافها وكأنها مطرّزة بخيوط الذهب . كانت بناطيله بيضاً كالثلج ، أمّا بسمته...

اعزفي هذا الفالس

بيبيتا!

لشد ما كان معجباً بألحان الفالس! كان يرقص على إيقاعها برشاقة كله جدّ وحبّ ، وكان يدور ويدور دائماً... وإني لأعجب إذ لم يكن يصاب بالدوار!

عادت كاتالينيتا إلى التفكير ممعنة النظر في الشمعدان أو في رأس بيتهوڤن المصنوع من الجصّ المدهون بلون أخضر برونزي – أو في طيّات الستارة... أمّا دونيا إيليبيرا التي كانت في الرواق الواقع في الجانب الآخر من البيت وتتسلّى بتطريز مخدّة ، فكانت ترفع رأسها عن الشغل .

– كاتالينيتا! بنيّتي!

– نعم ، يا أمي .

– لا تلهي! واعزفي بجد!

كانت كاتالينيتا تبتسم مرة أخرى سعيدة . ثم كانت تجري بأصابعها مرة أخرى

اعزفي هـ...

اعزفي هـ...

كانت متارة الأعصاب جداً . فهي - بعد كل ما تعلّمته - لا يطاوعها اللحن

اعزفي هـ .

اعزفي هـ - والآن - ذا الفالس

بيبيتا!

السعادة ترهق صاحبها أحياناً إرهاقاً لا يستطيع بعده الصمود... ولا يسعها جلده ، وكأنها تريد أن تخرج منه وتغرق كل شيء ، وتنقل العدوى إلى كل شيء ، وتصبغ كل شيء بلون الورود... احمرّ وجه كاتالينيتا . يا لهذه الأفكار! وكانت وجنتاها وأذناها بلون الشفق ؛ فقد طرق ذاكرتها ذلك الشعر (تلك القصيدة ، يا بنيّتي ، تلك القصيدة... كما كان يقول لها دون دافيد) الذي نظمه من أجلها .

أنا أعلم

لِمَا تتأوّهين .

أنا أعلم سبب نحولك

الحلو الخفيّ .

ما أجمل الأبيات! وما أحكمها! وما أشد معرفة قائلها بقلوب النساء! وما أذكاه!

كانت كاتالينيتا تضحك . واضطر دون دافيد الذي كان يتدخل في كل شيء لا محالة ، إلى أن يقول لها وهي تقوم بنزهتها عند مكسر الأمواج .

- كاتالينيتا ، بنيّتي! أقسم لك إنها من شعر الشاعر بيكر ، الذي جرى نقاش كبير حوله في مدريد منذ بضع سنين .

أتضحكين ؟ ستعرفين

السبب ذات يوم ، يا فتاة

ولعلك تخمّنينه .

أنا أعلم ذلك .

ما أحلاها وهي تنساب على شكل طبيعي! لا ، هذا محال! هذه الأشعار لا مفرّ من أن تكون من نظمه . لأنه كان يسدل جفنيه فوق عينيه حين يغزوه شيطان الشعر ويصبح كالممسوس . هي كانت تعرف شعر بيكر عن حقّ وسعة . فأشعاره كانت من هذا الطراز .

ستعود أسراب السنونو السود

لتعلّق أعشاشها على شرفتك .

أشعار كلها حزن وألم . ما أكبر الفرق بينها وبين تلك! هذه غير موجهة إلى قلوب النساء . هي كالشكوى ، كاللعنة! على العكس منها تلك الأشعار المتسقة الحسنة الوقع! حتى كانت تبدو لآلئ تسقط ببطء من عقد . نعم ، هذا هو القول السليم! كلآلئ تسقط ببطء من عقد .

– آه! ليتني أعرف أجمل شعر يمكنني نظمه لأجيبه على شعره!

كلآلئ تساقط

ببطء من عقد .

ببطء من عقد ، ببطء من عقد... وكانت تردّد كأنها في لحظة نشوة شعرية : عقد ، حقد ، بحر ، حب... كانت الحروف الصامتة تتدافع حرفاً بعد حرف ، وعلى عجل حتى كانت تبدو أنها ستفرّ من جديد .

... وتُسمع على هدير البحر

كأنها زمزمة ساحر

نعم ، هذا قول حسن : تسمع زمزمة ساحر... ثم ماذا ؟

في هذا الشعر تلقى

قلبي وقد ملئ نقاء وطهراً ،

تلقى روحي ، روح امرأة

في غدي وفي أمسي .

وما كانت تقوى على شيء آخر . كانت منهكة وسقطت فوق البيانو متأوهة مستسلمة...

– ما كنت أحسب قط أن ألهم بهذا الشعر! وكم سيعجب به! سأرى الآن إن كان دون دافيد سيقول إنه من شعر السيد بيكر .

أمها ، دونيا إيلبيرا ، كانت في الرواق الواقع في الجانب الآخر من البيت .

* * *

مضت الشهور وجاء الخريف ، هذا الفصل الذي أودعته كاتالينيتا كل يأسها ، وصار البحر الآن رمادياً بلون الحزن...

وكانت كاتالينيتا ما تزال تغنّي على البيانو هذا الفالس .

اعزفي هذا الفالس

اعزفي هذا الفالس .

وهو لمّا يصلْ . لعلّه انشغل بحمولة طرأت له . فما أقسى الحياة!

اعزفي هذا الفالس

بيبيتا!

ما كانت تريد التفكير في الغرق . لا! كان محالاً أن تتخلّى عنه عذراء الكرمل . لعلّه شُغل بشيء ما .

اعزفي هذا الفالس

اعزفي هذا الفالس

إنه حلمي الوحيد .

وهو ؟ آي ، أيتذكرها تلك اللحظة ؟ أيكون في حجرته ناظراً إلى صورتها ؟

أصبحت أمها لا تجلس في الرواق ؛ لأن الرواق صار بارداً . بل صارت تجلس في حجرة الخياطة ، وتتسلّى بإعداد ثياب للشتاء ، وترفع رأسها عن الشغل وتقول :

- كاتالينيتا ، بنيّتي!

- نعم ، يا أمي!

- أبعدي عنك هذه الأفكار .

كانت أمها على علم بكل شيء . ويا للخجل!

- لا تتلهّي! وانكبّي على العزف!

كانت الفتاة شبه منطفئة . ويا للخريف! يا لهذا الفصل الذي أرجعت كل يأسها إليه!

حاولت أن تتابع الغناء ، لكنها لم تستطع . سعلت قليلاً ، واستندت بيديها إلى مفاتيح البيانو ، التي أثارت ضوضاء وكأنها تغني من حشاها ، ثم نفثت قليلاً من الدم .

لبثت كاتالينيتا عاماً ونصف العام حتى ماتت . لم تكن حزينة ؛ فكانت تعلم أنه لم يكن لينساها ، وأنه سيظل يحبها كما كان يحبّها .

ولم تبرح مقيمة في ربيع ، في فصل علّقت كل آماله عليه لما كانت على يقين كبير أنه سيقدم بين لحظة وأخرى .

* * *


الأغنية الدائمة

١

أتحسبني ، يا سيد ، مجنوناً ؟ لا! أستطيع أن أؤكد لك أنني لست كذلك . لكنني لن أفعل . ولأي شيء أفعله ؟ ألكي أمنحك الفرصة لتصيح ككلّ الذين قد يسمعونك : باه! هو كأمثاله جميعاً... يحسب نفسه عاقلاً! هي الأغنية الدائمة ذاتها! لا ، يا صديقي! لا أستطيع ولا أريد أن أقدّم لك هذه المتعة ، أيسرُ لي أن تأتيني زائراً وتستنبط النتيجة أن كل المجانين يؤكّدون أنهم ليسوا مجانين . أنا لست مجنوناً ، ويمكنني أن أؤكد ذلك ، أكرّر . لكني لن أفعل ، بل أريد أنْ أبقيك على شكّك . من يدري إن كان موقفي يجعلك تميل إلى الاعتقاد بسلامة عقلي الكاملة .

(دون غيّرمو) لم يكن مجنوناً وإنما محبوس في مصحّ عقلي . لكني أقسم ، ويدي في النار ، على سلامة عقله . لم يكن مجنوناً . لكن ، إذا دققنا جيداً ، فما كانت تنقصه الأسباب ليكون كذلك... وماذا عليه إنْ ظلّ يؤمن خلال فترة طويلة من حياته أنه رَمْبرانت ؟ ألا يوجد بيننا كثيرون يحسبون أنفسهم رمبرانت ، وكثيرون آخرون نِلْسون أو غوته ، وأكثر منهم من يدّعون أنهم نابليون ويسيرون طلقاء في الشارع ؟ دون غيّرمو أودى به علمه إلى المصح... هذا العلم الذي يُعنى بتفسير الأحلام ، ويزعم أن الإنسان

الطبيعي السويّ غير موجود ، ويُطلق اسم استتشفاء على حالات المجذوبين... ، هذا العلم الذي ينفر من كل ما هو إنساني ، ولا يعلم أن امرءاً ما قد يضجر من بقائه مدة خمسين عاماً متتالية هو ذاته ، ثم يخطر له فجأة أنه بحاجة إلى التغيير ، ويحسّ بنفسه أنه إنسان آخر ، إنسان مختلف بل مناقض للأوّل ، له لحية حيث ما كانت توجد له لحية ، ويضع نظارة أخرى ، ويتحدث بلكنة أخرى ، ويلبس ثياباً أُخر ، حتى أنه يتبنى أفكاراً أخر إن شئنا الدقّة .

* * *

٣

منذ ذلك اليوم ، كنت أزور دون غيّرمو كل خميس تقريباً وبعض الآحاد أحياناً . وكان يستقبلني دائماً بحفاوة واهتمام . لأن دون غيّرمو كان سيداً عظيماً . فقد كانت له هيئة كونت عجوز من العصور الوسطى ، وله جلاله وطلاقة عاداته الريفية . كان طُوالاً ، أسمر ، ضامراً وذا نظرة قاتمة وغامضة... وكان يلبس على شكل لا يتغيّر سترة سوداء وقميصاً أبيض كان يغسله ويكويه كل ليلة إن لم يره أحد ، وكانت تنتظم فوق القميص بعناية ربطةُ عنق سوداء معقودة ، يستقر فوقها على ارتفاع واحد تقريباً شعار صغير من فضّة يمثّل جمجمة وعظمي ساق يستندان إلى حرفي G.G غ .غ .

كان يُبدي اهتماماً بشؤوني على شكل مهذّب . لكنه كان يمتعض من اهتمامي بشؤونه التي كان يكره الكلام عنها . وكان يكلّفني جهداً مضنياً أن أنتزع منه سراً . وإذا بدا له أحياناً أني ظفرت به ، كان يوقفني فجأة وينظر إليّ من قرني إلى أخمص قدميّ نظرة إشفاق تغيظني . ثم كان يضع يديه في جيبيه ويقول لي :

- أتعلم أنك ماكر جداً ؟

وكان يضحك مقهقهاً قهقهات ضخمة . وكان عبثاً بعد ذلك ، استئناف الحديث حول الموضوع المطروح .

٣

في المصح ، كان يُعامل باحترام ، لأنه لم يُثرْ منذ دخوله – وقد مضى على ذلك ما يقارب أربعة عشر عاماً – فضيحة واحدة . كان يدخل الحديقة أو الرواق ويخرج منهما متى خطر له ذلك . وكان يجلس على حافة البركة ناظراً إلى الأسماك . وكان يتفقد ، وهو يصفّر بإيقاعات إيطالية قديمة ، المطبخ أو المغسلة أو المخبز... وكان المجانين الآخرون يقدّرونه . ولم يكن موظفو المصح – ما خلا الأطباء الثلاثة – يصدقون جنونه .

* * *

٤

الأيّام تتكرّر دائماً . واعترف لي دون غيّرمو ذات يوم ، كنا نتحدّث فيه عن العالم الآخر ، أنه إن كان لم يُلق بنفسه في الماء ضجراً لا يأساً ، فذلك أنه يخشى فروق الحرارة .

– يُثير فيَ القشعريرة أن أتخيّل نفسي نصف راسٍ ، نصف طافٍ في قعر البركة وقد تشرّبت قميصي بالماء البارد... ، على الأغلب ، ستكون عيناي مفتوحتين وسوف تدخلهما أقذاء الماء وتسبّب هياجهما . ألا يجعلك منظر غريق ترتعد ؟ لكن الأسوأ ليس هنا . تصوّرْ نفسك أن دورك حان بغتة ومثلت أمام الله وأُرسلت إلى الجحيم لأنك منتحر... ، ويأخذ الماء في القميص والشعر والحذاء بالغليان ، وتشرع تقفز وتقفز إلى أن يتبخّر الماء ، ثم تفتقده بعد ذلك ، لأن عصارات الجسم تبدأ في النفاد .

* * *

(٥)

ما إن اجتزت الباب يوم الخميس التالي حتى خرج البواب من مقصورته كحلزون من قوقعته وقال لي .

- إلى أين ذاهب يا سيد ؟ لقد دُفن السيد دون غيّرمو السبت الفائت . لكن ، ألم تعلم بذلك ؟ ظهر صباح الجمعة غريقاً في البركة... كانت عيناه الكبيرتان الزرقاوان جد مفتوحتين ؛ وكانت أقذاء الماء قد هيجتهما حتى بدتا كأنما فُركتا برمل... كان شبه عارٍ... تبعث القشعريرة في المرء رؤيته وقد تشربت قميصه بالماء البارد...

* * *

١

بدأ نيسان يزرع الحقول الخضر بأزهار الجرس الزرق ، وبالأقحوان التي بعضها كبير وفضي اللون وبعضها أبيض صغير ، وبالسوسن الرقيق والبنفسج العطر . وأزهر الرتم ، وغطّت الورود شجيرات الكاميليا والغاردينيا والماغنوليا العريضة العتيقة كالجدات البريتونيات . وكفّت الأمطار عن الهطل ، وكان نسيم البحر يضفي طعماً مرحاً ومألوفاً على الوادي الفسيح .

كان دون خوان يقضي ساعات طوالاً في الرواق جالساً أمام طاولة العمل الصغيرة ، منظّماً أشعاره ، واضعاً قليلاً من الانسجام - وما أجمل كلام دون خوان - في أعماله الطويلة الماضية .

لقد جفّ دماغي - كان يقول لأصدقائه - جفّ كأنه كرزة عجوز ؛ لكني ما زلت أمتلك الصبر .

وكان يبتسم ابتسامة ملائكية... كان دون خوان شاعراً . وقد كان غنّى البحر يافعاً ، والحبّ شاباً ، والأرض كهلاً . وكان أهل بلدته يعرفون أشعاره ويعجبون بها . وأحسّوا بالفخر بها بذات السرعة التي نسوها بعد ذلك ، وإذا شئنا الحقيقة ، فقد أحرز نجاحاً حتى في مدريد بعد نشره كتاب (قيثارة الوحدة) الذي ظهر مع دراسة مقدمة لدون إميليو كاستلار .

كان دون خوان يحفظ بعناية قصاصات من الجرائد التي تعاون معها ملصوقة على ألبوم ، ألبوم رقم ١ ، وفي ألبوم آخر ، ألبوم رقم ٢ ، كان يحفظ بالعناية ذاتها أيضاً القطع التي كانت تهتم بأعماله . وإذا وجد نفسه وحيداً كان يلهو متصفّحاً ببطء كل ما كان عمله . وكان يقلب شيئاً فشيئاً صفحات الألبوم بحنان بخيل يستمتع بالذكريات وبكل ما تشثيره . ثم كان يبتسم ابتسامة مرّة وعميقة... حتى قال عنه كسرْلينغ لما عرفه في شيخوخته إنه هاوي جمع ابتسامات .

في حوالي الساعة التاسعة صباحاً كان يضع فوق دفاتره ، ودفاتر مذكراته حجراً صغيراً من الكوارتز البلوري ؛ ثم ينهض ليقوم بجولة صغيرة في أرجاء الحديقة . وكانت الحديقة «الشيء الوحيد الباقي في حوزته» . فكان في الشتاء ، يُعنى بفرش طبقة من الزبل برفشه الصغير فوق البذور ؛ وفي الربيع كان ينظر نظرة عالم إلى إنتاش الغاردينيا التي زرعها العام الماضي تحت الوعاء الذي يتغطى من الداخل بقطيرات الندى الرقيقة ؛ وكان في الصيف يطرد مكرهاً أحياناً ، الخلد الحفّار الذي كان يملأ الحديقة بالثقوب . وكان أخيراً في الخريف ، يهز الورود الذاوية وينظف الدروب من الأوراق المتساقطة ، وينتقي بحدب أبوي العُقل التي ستعطيه عند عودة الربيع مرة أخرى نباتات جديدة .

كان دون خوان قد كتب إبّان نضجه بحثاً صغيراً في زراعة الزهور ، وعنونه : «كتاب محبّ أزهار الحديقة» ، وكان يضعه في جيبه أينما ذهب ، ويريه هؤلاء وأولئك ، وجمع حوله آراء بعضها بسيط أملته الصراحة ، وبعضها فضفاض خاطئ ، ومعظمها كان بكل بساطة دقيقاً ، وبحث عبثاً عن ناشر . فشعر بالانقباض ذات يوم وبدا الاستياء على وجهه...

لكن ذلك لم ينفعه في شيء . فرأى نفسه مضطراً إلى الصبر نظراً

لافتقاره إلى المال .

لن ينفعني اليأس شيئاً ، - كان يفكر ليعزي نفسه - إذا كان الكتاب جيداً ، فسوف يأتي من يبحث عنه .

وهي محاولة لم تثمر . فالكتاب ، وإن كان جيداً ، لم يحظ باهتمام أحد ، وظلّ راقداً في قاع أحد الدروج .

- كل يوم يقلّ عدد محبي أزهار الحديقة . - قال له أحد الناشرين .

أتوجد جرأة بعد هذه الجرأة ؟!

كان دون خوان نفض الغبار عن مخطوطه القيم منذ فترة ليست ببعيدة ، وشعر بكل اللذة التي يشعر بها مكتشف لما أعاد قراءته... فبدت له الفصول جديدة ؛ وظهرت النصائح من أجل نموّ الأزهار نمواً أفضل كأنما قيلت للتوّ . ولم يدفن مخطوطه مرة أخرى في قاع الدرج . وها هو ذا الآن على منضدة العمل وفوقه حجر الكوارتز الخاص به . وكان يتصفحه من حين لآخر ويريه أصدقاءه . وكان أصدقاء دون خوان شخصين اثنين : الخوري دون نيكولاس ، والكاتب العقاري دون آرنستو ، وما كان هذان يتخلّفان عن المجيء كل مساء إلى بيته . وكان هو ينتظرهما عند أسفل السلّم مرتدياً قبّعته الصغيرة المدوّرة من المخمل الأخضر الغامق تزينها شرائط زاهية بلون أزرق بحري . وكان يبتسم لهما عند وصولهما .

- الله! الله! يا دون نيكولاس! كل يوم تزيد نضارة! وعجباً عجباً ، دون آرنستو! لقد عدت شاباً!

ثم يبتسم مرة أخرى مزمجراً في داخله : الله! الله! وهو يرافقهما عبر ممر شبه مظلم حتى غرفة المعيشة .

وفي غرفة المعيشة كانوا يعقدون ندوتهم ، ويجلسون حول الطاولة : كان دون نيكولاس يحتلّ رأسها ، ودون آرنستو في أحد الجانبين ، ودون

خوان في الجانب الآخر . ويشرعون في الكلام ، أولا ببطء ، ثم بسرعة أكبر ، وكأنهم يخشون أن يفوتهم الوقت ، ثم ينادي دون خوان ماتيلده الخادم العجوز المجعدة الوجه مثل وجهه ، والمختمرة بمنديل من الحرير الأسود ؛ كان يدعوها إليه بواسطة جريس من البرونز صغير ومدبّب يحدث دندنة بلورية . ثم كان يصيح في آن واحد بصوته المتهدّج الضعيف ، وكأنما يريد أن يضفي طابعاً حميماً أكبر على الأمر .

– ماتيلده! ماتيلده!

وكانت ماتيلده تصل بعد قليل تخطو خطوات صغيرات عجولة . وما كانت بحاجة إلى أن تتحقّق مما كان يريده دون خوان . فقد كانت تعلمه . كان يرغب في كل ما يرغب فيه كل مساء . كان يريد صحناً من أقراص البسكويت ماري – وزجاجة من عصير الكرز ، ذلك الشراب الذي كانت تصنعه بيديها كل عام حسب الوصفة البيتية القديمة التي تعلّمتها من أمها منذ سنين طويلة خلت ، وكأنها طقس ديني – ؛ وكان يريد ثلاث كؤوس...

وكان دون آرنستو يقول :

– لكن ، دون خوان ، لِمَ تزعج نفسك ، يا رجل!

وكان يقاطعه دون نيكولاس السار ببلادة .

– دعه ، دون آرنستو ، دعه يفعل! سيلقى جزاءه عند الله .

كان دون خوان يملأ الأقداح ؛ ثم يأخذ قرصاً من البسكويت... ويبتسم . وقد اضطر دون آرنستو إلى أن يقول له ذات يوم .

– أنت رجل مدبّر للأمور ، يا دون خوان ؛ تكتب شعراً ، وتعنى بالزهور ، وتشرب مشروباً من صنع يدك .

وما كان دون خوان ليجيبه ، بل اكتفى بالابتسام وأخرج ورق اللعب قبل الوقت المعلوم قليلاً ، وقرّب المقعد من المنضدة وتنحنح...

- هيا نَرَ مِنْ حظِّ مَنْ سيكون اليومَ الآس الديناري .

راح يوزع الورق ورقة ورقة مكشوفة إلى أن ظهر الآس الديناري ، وكان من نصيبه . لمَّ الورق شيئاً فشيئاً وخلطه بعناية .

وصاح دون آرنستو بعد فترة معلناً نصره بعد الجولة الأولى .

- ربحت! أربعون نقطة في يدي![1]

ولم يجد السيد دون نيكولاس بداً من التسليم بالأمر ، وقال ناظراً إلى دون خوان :

- حسن! على الأقل نعلم من حازها .

وابتسم دون خوان مرة أخرى ناظراً إلى ورق آرنستو . وكان هذا الأخير يبتسم أيضاً معلناً أنه ليس له أعداء .

في التاسعة مساء ، كان ينفضّ اجتماعهم . وكان دون نيكولاس يقول موجهاً الخطاب إلى دون خوان .

- هذا الهالك دون أرنستو ربح مرّة أخرى بيزيتا منا كلينا . كيف يبدو لك ذلك ؟

وكان دون أرنستو يجيب دون نيكولاس مقعّراً صوته :

- لابأس عليك ، لابأس عليك ، سيدي الكاردينال! لا تشكُ! يكفيك ما نلته من دفن الموتى هذه الأيام!

وكان يضحك مطلقاً قهقهة كبيرة وهو يبتعد بصحبة الخوري منحدرين في طريقهما صوب بيتيهما .

---

(١) الحصول على أربعين نقطة في أحد ألعاب الورق المسمى (توته) ، وذلك باجتماع الملك والحصان (حسب ورق اللعب الإسباني) من الفئة المسماة للربح .

٣

لكنّ دون خوان كفّ عن الابتسام ذات يوم . كانت الساعة قاربت التاسعة صباحاً ولمّا تظهر ماتيلده لأوّل مرة في حياتها حاملة صينية الإفطار بيدها وعبارة :

صبّحنا الله بخير ، سيد دون خوان ، على شفتيها ، بينا تدفع الباب برفق بمنكبها . وساورت دون خوان الدهشة ؛ فجلس على السرير ونظر إلى الساعة مرة أخرى . وأخذ يستولي عليه إحساس بالقلق ؛ كان يريد أن يعلم ما جرى ، لكنه كان يخشاه من جهة أخرى . كرّر النظر إلى ميناء ساعته ؛ إنها التاسعة وعشر دقائق . نعم ؛ لم يكن ثمة شك . فقد حدث شيء لا محالة ؛ ونهض وألقى بالعباءة على كتفيه ، ولبس (الشبشب) الذي ينتعله كل صباح أثناء الاغتسال ، وخرج إلى الممر .

– ماتيلده!

ولم يجبه أحد . ورنّ صوته في كل أنحاء البيت على شكل غريب ، جد غريب حتى لم يجرؤ على ترديده . فأحسّ بالخوف ، خوف مما لا يتشك فيه أنه قد حدث . واندفع صوب حجرة ماتيلده . ودقّ الباب بأنامله دقاً خفيفاً ، ولا مجيب .

ثم كان يضيف لما قصّ على دون أرنستو ودون نيكولاس .

– لما رفعت السقاطة لأدخل ، كنت أرتجف كالمحموم . فتحت الباب فوجدتها مستلقية على سريرها والمنديل على رأسها . كانت تبدو نائمة . لكن المسكينة كانت ميتة ، حقّ الموت . لمستُ جبهتها فوجدتها باردة كالجليد... وكانت عيناها مطبقتين . وظلّ دون أرنستو ودون نيكولاس مطرقين متفكرين .

في اليوم التالي ، قال دون أرنستو لدون خوان أثناء مراسم دفن الجثمان .

– ألا يبدو لك أن صديقنا دون نيكولاس قد تأثر قليلاً ؟

بحث دون خوان عن خادم جديدة فلم يعثر عليها سريعاً . ونزل خلال ذلك فندق بيرلا . في البدء ، بدت له أطعمة الفندق رديئة المذاق . لكن ، لمّا أخذ يتعوّد عليها ، ظهرت الخادم المنشودة ، وعاد إلى بيته مرة أخرى . لكنّ الأطعمة الرديئة المذاق ، كانت هذه المرّة الأطعمة التي تعدّها الخادم الجديدة مما فاقم من تعاسته . وما كان يفهم إصرار رامونا (وهو اسم الخادم الجديدة) على ملء الطعام بالبهار والثوم ، على سهولة صنع العجّة على الطريقة الفرنسية ، أو سلق قليل من سمك المرلوث مع حبتين أو ثلاث حبات من البطاطا! وبعد فترة معيّنة استطاع أن يجعل رامونا تقلّل من وضع المواد الحريفة في الطعام .

– أما ما لا أستطيع الحصول عليه – كان يقول لدون أرنستو – أن أعود إلى العجة والمرلوث ؛ وقد أشرت عليها بهما ذات يوم . فبدت لها مشورتي غاية في السوء . وقالت لي : لإعداد الطعام سلقاً لا تحتاج إلى طبّاخة ، فسكتُّ . وماذا بإمكاني أن أجيب في هذه الأحوال!

وجد دون خوان حديقته مهملة . وبدا ذلك شيء لا يُصدّق . لكن ، بعد

خمسة عشر يوماً من الغياب ، عليك أن تتوقع ما يمكن أن تؤول إليه الحديقة من الخراب . بالفعل ، خرّب الأطفال جانباً من السياج الشائك ليسهل عليهم الدخول والخروج بحثاً عن المشمش والخوخ . وكان الدجاج يمرّ عبر طاقة صنعها الأطفال عابثاً بكل شيء . وأخذ الحزن يغزو نفسه . أبعد كل العناية التي بذلها خلال سنيّ عمره ، يرى ذلك الخراب في حديقته ؟ وسار وهو يرتعد نحو الرواق ليرى ألبوماته وكومة دفاتره ، فوجد كل شيء في مكانه كما تركه . وخفّف ذلك من وقع السوء عليه .

* * *

٣

ذات يوم ، ظلّ دون خوان راقداً في سريره . إذ كان رأسه يؤلمه قليلاً .

لما حُمل جثمانه إلى المقبرة بعد خمسة أيام من ذلك ، راح دون أرنستو يفكر وهو ينظر إلى دون نيكولاس الذي كان يتلو بعض الآيات من الإنجيل في هشاشة الحياة وسرعة زوالها . وعملاً على تخليدها ، أخذ بحث دون خوان ، الصغير في زراعة الزهور وذهب به إلى لاكورونيا . وأبطأ ثلاثة أيام حتى عاد . وعند عودته سأله دون نيكولاس .

- ما لك عدت باكراً ؟ أأنجزت كل أعمالك ؟

وأجابه دون أرنستو .

- أنجزت لعمل الوحيد الذي حملني إلى هناك ، يا سيد نيكولاس ، العمل الوحيد الهام الذي عرفته حتى اليوم .

بعد شهر أو ما يزيد عن الشهر قليلاً ظهرت في البلدة النسخة الأولى من كتاب دون خوان ، وعلى غلافه كتابة تقول .

كتاب محب أزهار الحديقة

ألّفه لتسلية نفسه

دون خوان ألبارِث بيبرناس

صاحب ديوان : قيثارة الوحدة .

وطبعه

دون إرنستوسوليس هيرّيرو

كاتب في السجل العقاري ومحب للزهور

مطبعة س . سانس

لاكورونيا

١٩٠٣

* * *

نادي المخلّصين

كان خوانيتو أورتيس رِيبويادو نصف سكران لما راح يقصّ عليّ ذات يوم قصته في البرازيل ، التي طالما أعجب بها دون أنْسِلْمو .

كان عجائز الأرض اليابسة – كالكاتب العقاري وأمين المكتبة والخوري – ينظرون إليه فاغرة أفواههم ، زائغة عيونهم دهشة وإعجاباً . فقد كان خوانيتو أورتيس ريبويادو في نظرهم ، أقصى ما يمكن أن يكون .

واهاً للبحّارة العجائز!...

وبدأ خوانيتو على الشكل التالي

* * *

١

لما طُردتُ من البرازيل ، وقيل لي إنْ لم أبحرْ على متن أول مركب ينطلق من سانتوس ، فسوف أُودَع السجن . ألقى المركب كلير ديلونا الذي كان قذراً حاراً ذا رائحة نفّاذة كرائحة خادم زنجية ، مراسيه على شاطئ ميامي ، ميامي الذهبية .

ما كنت أعرف أحداً في الولايات المتحدة . (وأبناء عمومتي من آل كوفّين لا أعدّهم من معارفي لأنهم ، تلك الأيام ، ما كانوا يريدون حتى أن يلقوا عليّ السلام) ؛ لكنّي كنت أعزّي نفسي بأن وضعي ربّما كان أسوأ لو قام كليرديلونا بالسفر إلى أفريقية الجنوبية ، أو إلى أرض النار ، أو إلى جزر سبيتزبيرغ ، والعزاء منوط بالإرادة .

لما وضعت قدمي على اليابسة لم يكن في جيبي بيزيتة واحدة . والآن ، إذ أتذكر الجهد الذي بذلته لأكسب أوّل دولار ، أفكر بحزن في تلك الرائحة العذبة ، رائحة القهوة التي عبقت بثيابي في عنابر (كليرديلونا) ، وفي المبالغ الهامة التي يمكنني الحصول عليها اليوم لو سمحت لسكارى مالطا البائسين بمقاربتي ، وفي خبائث أخرى . لكن ، ماذا بوسعنا أن نصنع! فقد أدّى مرور الوقت ، والليالي التي نمت فيها في العراء ، والركض عارياً يطاردني البوليس

إذا سرقت موزاً من البساتين ، إلى ضياع هذه الرائحة العطِرة المنعشة التي كانت تنطلق من سترتي وقميصي الداخلية . وخير لي ، اليوم ، ألا أتذكّر شيئاً من هذا بعد كل هذه السنين الطوال . احسبوا ، يا سادة ، كم مرة خلال عشر سنوات ، يمكن لسترة رجل عامل أن تبدّل رائحتها! وكم مرة يستطيع رجل عمل أن يبدّل سترته!

نزلت اليابسة مساء ، وإن يكن كليرديلونا قد رسا في الصباح عند الساعة التاسعة تقريباً ، لكنني لما أردت النزول منه إلى الأرض اعترض طريقي رجل يلبس ثياباً بيضاً كان في مركز الجمرك ، ولا شك أنه وجدني غير جدير جدارة كافية للاحتكاك بمواطني الولايات المتحدة . وقال لي بكلمات سيئة جداً إني لن أنزل هنا ، ودافعت عن نفسي ، بالطبع ، وقلت له ماذا يحسبني ؟ فأنا لست صينياً ولا زنجياً الخ ؛ لكن السيد الجمركي اكتفى بتغيير جلسته ووضع سيجاراً بين أسنانه وأشار إلى شرطي كان إلى جانبه وبدا لي ملاكماً .

قبض عليّ الرجل من عنقي كما يقبض البوابون في الملاهي على الشبّان السكارى ، ودفع بي إلى سلّم المركب . وإذْ تكشفتْ لي نواياه ، وبدا بهيئة حمار ، رأيت من الخير ألا أثيره ، وأنّ الحكمة تقضي بأن أظلّ هادئاً ولا أبدي مقاومة ، وصعدت السلّم متظاهراً أني أشدّ اضطراباً وخجلاً من قردة ، وانتهى بي المطاف إلى جوف السفينة . والله يعلم أني لو أطللت برأسي وإن يكن لهنيهة واحدة ، لقضى عليّ ذلك البربري .

لم تُستقبل عودتي إلى /كليرديلونا/ استقبالاً حسناً . لأني لم أستطع دفع كلف الرحلة كاملة . وكان يُنظر إليّ بتلك النظرة القاتلة التي ينظر بها ربابنة سفن الشحن إلى المبحرين خلسة . هذه النظرة التي لا تُنسى مدى الحياة ، وتبدو أنها بذاتها تفصح عن نواياهم .

أشدّ ما يغيظ ربابنة الشحن أنهم لا يستطيعون أن يلقوا إلى الماء بمن يتسلّلون إلى سفنهم ، إلى هذا الماء الوسخ الشبيه بمياه الموانئ الأمريكية الزهمة التي يُلمح تحت سطحها تحركات القرش والمانتا المشؤومة .

لكن ، دعونا من الرومانسية!

وَعَدْتُ القبطان (وهو إيرلندي أشد سكراً من باخوس ، وأكثر غدراً على الأقل من أوباس) أنني سأحاول عند غروب الشمس النزول إلى اليابسة ، وأرى إن كان يحالفني حظّ أحسن من السابق . ونزلت إلى المطبخ لغسل الحلل أو لإيقاد النار كي لا ينساني الطبّاخ ساعة الأكل .

لما حلّ المساء ودّعت الطبّاخ الذي لم يكن مفرطاً عليّ في التسر ، وما أندر ذلك! وشرعت أروح وأجيء بعنف على ظهر المركب جهة اليابسة ، إلى أن مللت النظر إلى ذلك الرصيف حيث الشرطي الذي دفعني - أو شرطي آخر مكانه - كان ما يزال واقفاً منتصباً كصنوبرة . وفكرت في أن أنقضّ عليه (وهذا وهم) ، وقلت باسم الأب والابن وروح القدس (وهذا حق) ، وألقيت بنفسي في الماء من حافّة السفينة الوحشية .

أذكر أن الغوص سبب لي شعوراً باقتراب الموت ، لأنني تذكّرت هياج أسماك المانتا حين تطلّ على السطح . لكنني سبّاح ماهر وثيابي ما كانت تعيقني ، لأني ما كنت ألبس منها غير ما يبدو للنظر . وإذْ كان متاعي جد فقير حتى كنت أحمله بفمي مصروراً بمنديل ، بلغتُ بسرعة القوارب التي كانت شبه غارقة لكي تنتفخ ، فزال عني الخوف بسرعة أيضاً . لم أكن أحمل ساعة ، فلا أعرف كم لبثت من الوقت في تفريغ القارب من الماء . لكنه لا يقل حسب ظني - عن خمس ساعات أو ست . ولما فرغت حدّدت مكاناً على الخليج بدا لي ملائماً ، ورحت أجذّف صوبه جالساً على كوثل القارب ، بمجذاف وحيد كي لا أثير مزيداً من الضوضاء ، إلى أن وصلت وانتهيت

من المهمة .

لا أدري إن كان كريستبول كولون أحس بالرضا الذي أحسست به لما لمست اليابسة . تصوّري أن الولايات المتحدة كبيرة جداً ، وأن الشرطيّ صغير جداً وشرطة البرازيل بعيدة بعداً سحيقاً أثار فيّ لحظة من السعادة يصعب عليّ أن أنساها مدى الحياة .

تجرّدت من ثيابي لكي تجفّ وجلست على صخرة كآدم في جنّته الأرضية ، وأستثني البرد الذي أصبت به .

إزائي ، كان كليرديلونا قد فرغ من نصف حمولته وبدا خطّ الأمان الأحمر في وسطه . وكان القمر يسطع في كبد السماء ورجل الشرطة يقف على الرصيف والقرش يسبح في البحر .

* * *

٣

من الخطر أحياناً أن تشعر براحة البال والاطمئنان . لأن الهمّ يبعد النوم والأحلام ، ويجنّب المرء أن تُسرق ثيابه .

لما استيقظت فجراً وأنا أسعل أكثر مما تسعل الشاة وأرتعد من البرد أكثر من مصاب بالبرداء ، رأيت بحزن أن في بلد الذهب من هو أفقر مني وأشدّ بؤساً .

أقسم بشرفي لا أدري أيهما أبعث على الأسى : تعاسة من سرق ثيابي (وهو لا شك في أنه يلبس ثياباً بالية) ، أو الثقة بأني لست المشرّد الوحيد على ساحل ميامي المترف .

مضت فترة ما بسطت الشمس خلالها جمّتها الشقراء ، الخ... ، أما أنا فسرت بخطا سريعة صوب أقرب (شاليه) واضعاً يداً من خلف ، ويداً من أمام . فلا بد لي – كما تعلمون – من عمل شيء ما .

وكان اسم الشاليه : ماي كوتّيتج .

ضغطت الجرس ضغطة خفيفة جافّة لأتمكّن من إعادة يدي لتؤدي مهمتها الشريفة ، وانتظرت . وبعد هنيهة ، فُتح الباب .

ما كان مظهري ، على الأغلب ، يوحي بكثير من الطمأنينة ، لكنّ المسألة على الأغلب أيضاً ، ليست بالخطورة حتى تسبّب إغماء .

وارتطمت السيدة بالأرض بعنف . وحاولت إنعاشها وهرع نحوها سيّد لا بد له من أن يكون زوجها ، وطفلان وطفلة وخادم...

في البدء ، رجعت إلى وضعي السابق : بوضع يدٍ من أمام ويدٍ من خلف . لكن ، لما استردّت السيدة وعيها أخذوا يطاردونني جميعاً كأنني كلب مسعور ، فلذتُ بالحائط ، ورحت أدافع عن نفسي بيدي الطليقة ، لأنني فكّرت في أنه لا ينبغي لي أن أجعل نفسي عرضة للعذاب مثل سان سباستيان وإذْ كانت لغتي الانكليزية الضعيفة تختلف عن لغة هذه العائلة ، فما كانت توجد وسيلة لنتفاهم ؛ وإذْ كانوا أتخنوني بصياحهم وضربات عصيهم فقد تحيّنت الفرصة وسدّدت ضربة إلى خد صاحب الشاليه لما اقترب بوجهه مني ، فجعلته يبصق أسنانه ، ومن يدري إن كان نصف لسانه أيضاً . وكان ذلك إشارة كنّا ننتظرها جميعاً كيما نهدأ أو نستقر .

نُقِل صاحب الشاليه جرّاً على السلم ، وأُلقي إليّ ببنطال غير ملائم لأنه كان ضيّقاً عليّ قليلاً ، لكنه كان صالحاً ليغطي عورتي الخاطئة .

ولما تحرّرت يداي فكرتُ في أن الحكمة تقضي بألا أجرّب العناية الإلهية ، بل عليّ أن أرحل عن ماي كوتيتج ، وأخذت دون أن أفيض في النقاش (وهو شيء جلب عليّ نتائج سيئة دائماً) معطفاً قصيراً كان على أحد الكراسي ، وألقيته على كتفي وخرجت إلى الشارع من ذات الباب الذي دخلت منه .

القول بأن النساء العجائز يملكن في صدورهن قلوباً رقيقة هو شيء من عادات أوروبا القديمة . أقول ذلك ، لأن مظهري حينئذ ، كان جديراً بالشفقة والعطف أكثر مما يدعو لإطلاق الكلاب والأطفال والشرطة ورائي . وهو ما تسلّت بفعله ، مع ذلك ، عجائز ذلك البلد .

مطاردتهم لي مذ بدؤوا فيها حتى دخولي تلك الكنيسة الإنجيلية هي

شيء ذكراه تبعث القشعريرة فيّ . على أن قداسة المكان هدأت من ثائرة الجمهور . ودعاني راعي الكنيسة بابنه ، وناولني فنجاناً من الشاي وخاطت زوجه بنطالي الذي كان تمزّق بفعل الهجوم الذي شُنَّ عليّ ، وكشف عن أعضاء خُلقت كيما تُستر . أما أنا ففكرت - وما أعجب الرابطة البعيدة بين الأفكار! - أقول فكرت تلك اللحظة في طفولتي لما كنت راعياً أرعى بقرة والدي الصغيرة المبقّعة ببقع سود وبيض .

إنها لحظات من الضعف . ومن منّا لم يعان منها ؟

ألقى راعي الكنيسة من منبره موعظة جميلة ، ثم ردّدتها عليّ زوجه في المطبخ . ولا شك في أنها حفظتها حفظاً ، وأخذت الزمرة من مطاردي تهدأ شيئاً فشيئاً ، إلى أن وجد أفرادها شيئاً أمتع من مطاردة غريب ذي بناطيل ممزّقة ، فتسلّوا به ، والحمد لله على رعايته لي .

اجتمع راعي الكنيسة بنا (أي بزوجه وبي) ، وقال لي شيئاً نظير ما يلي : قد نجوت من ذي عظيمة ، يا فتى . فماذا لو كنت زنجياً ؟! فأجبته عن ذلك بشيء لا أتذكره ، وإن كنت أعلم أنه شبيه بالقول : لا ، يا سيدي ، لستُ زنجياً ، فأنا بفضل الله من بيتانتوس التابعة لمدينة لاكورونيا في إسبانية .

سألني بعد ذلك عن مشاريعي ؛ ولما قلت له إن حلم حياتي الوحيد ألا أصطدم مرة أخرى بالحرس البرازيلي ، شرع يحدّثني عن التطلعات السامية وترّهات أخر ، وانتهى إلى أن اقترح عليّ تعليمي عقيدة طائفته ، وهي طائفة ليست كالطوائف الأخر ، حسب زعمه ، وإنما هي الأسّ الذي ستقوم عليه الرفاهية الروحية والمادية للإنسانية في المستقبل .

ليس الأمر في أن يكون المرء من ذوي الإحسان ولا غير ذلك . لكن ، إذا كنا نحن - الإسبان والصينيين والفرنسيين واليابانيين والطليان والهنود -

لا نعرف أن نحلّ قضيتنا ، ولا نجد من نتحداه ، فإننا نضجر ونصطبر ، لكننا لا ننهمك في تأسيس أديان . أنا أكلّمكم ، يا سادتي ، بجدّ .

إذاً ، لمّا رآني راعي الكنيسة قليل الحماسة لأسجل نفسي عضواً مؤسساً في طائفته ، شرع يكلّمني عن تعاونية يستطيع فيها الأعضاء أن يشتروا بضمانة أموالهم المستقبلية ، إذا لم تكن حاضرة . لئن بدت لي الفكرة في البداية غير نظيفة ، فقد فكرت بعدئذ في أن الله سيغفر لي أن أقتات بما استطعت ، وقلت له إني موافق ، وليسجلْ اسمي . وجدت بعض الصعوبات في الحصول على بطاقة التعاونية ، لكني أعطيتُها أخيراً وعليها صورة فوتوغرافية وكل ما يلزمها .

رافقني الراعي إلى /فيلانتروبيك سوسييتي/ وبدأت هناك حياتي الجديدة . وفي الجمعية التقيت صاحب شاليه ماي كوتيتج الذي طلب إليّ بلطف شديد أن أصفح عنه لأنه ما كان يعلم شيئاً عن تشاركنا في الأفكار ؛ ولقيت الشرطيّ الذي قبض على عنقي ؛ والسيد ذا الثياب البيض الذي أمره بذلك ، وقالا لي كلاماً مشابهاً للكلام السابق ؛ التقيت العجوز التي بدأت مطاردتي وشاباً نحيلاً ذا لحية جميلة سلّمني وهو يتلعثم رزمة من الثياب التي سرقها مني على الشاطئ مع بطاقة تقول :

جون آندربيتيكوت

يشعر بالخجل أمام نبينا لويس هتشاوي ، لأنه

جرّد أحد إخوته من ثيابه .

ولقيت أخيراً ، السيدة التي أصابها ظهوري بالإغماء . وكان ذلك التضامن مثالياً حقاً . لقيتُ أحد مواطني بلدي بين الإخوان ، يدعى مودسْتو لوريرو ، من تشنتادا في لوغو ، وقال لي إن السياح يطلقون على الفيلا نتروبيك سوسييتي ، نادي المخلّصين احتقاراً . وكان شعور الرجل بالإهانة

حاداً لما قال ذلك ؛ فما كنت لأجرؤ على معارضته لقاء أي شيء في الدنيا . وطلبت إلى مودستو أن يقدّمني للقوى الحيّة ، لأنّ ميامي – وإن اعتقدتم عكس ذلك – بلدة عمدتها يحسب نفسه كما العُمد في كلّ مكان ، أنه سرّة العالم . لكنّ الرجل كان غليشياً أكثر مما هو الأسقف خيلميريث فقال لي : لا توجد قوى حية هنا بالمعنى الحقّ لكلمة حياة ، غير القوى التي حيّتني منذ قليل . لم ألحّ ، وليس دون سبب . لأنني كنت أرى أني لن ألقى منه جواباً مفيداً وغذذت الخطا صوب زمرة صغيرة فيها فتاتان جميلتان . ولقد انتابني الذعر لما سمعت بازدرائهم لمكتشف القطب الجنوبي المجيد وقت استولى فيه شيطان الأسفار على قلبي .

وقلت لهم إن أحداً لم يجرؤ حتى اليوم أن يتناول بالسوء إبسن ولا آمندسون ولا والتر سكوت في حضرتي . فحفظوا بمهارةِ نشّالٍ حماقاتهم لمناسبة أفضل . أواضح ذلك ؟

وتدخل في النقاش أحد أفراد التلّة ، وكان عجوزاً ضئيل الحجم يؤكد ببلاغة مزعجة أن له عماً فرنسياً ، وكان له مهارة كافية ليبتعد بالأمور عن إبسن – وهي نقطة لم يجرؤ أحد في حضوري أن يمسّها قطّ – . وبعد تشريق وتغريب ، انتهى إلى التعاريف المختلفة التي تطلقها الإنسانية حسب زعمه على مفهوم الكرامة ، وكأن الإنسانية لا همّ لها إلا الانشغال بهذا المفهوم .

وكان الرجل يتكلم ويتكلم كأنّه نائب حقيقي عن مرسيليا أو سان أيتيين . وإذْ كان يقول أشياء ما كنت أفهمها ، لكنها كانت تبدو لي مناقضة للعادات السليمة ، قاطعته فجأة وقلت له أن يسكت لأنه أفرط كثيراً في قول الحماقات .

قال لي ابن أخ الفرنسي أن أتهجّى (حماقة) ، ويحسب أنه لم يسمع جيداً لكني لما تهجّيت الكلمة على خير ما أستطيع

ف – و – ل – ل – ي   F - O - L - L - Y

أخذ يتشتطّ ويقول لي إني لا أعرف التهذيب ، وإني مصارع ثيران جوّال غير مؤدب وبعيد عن التفكير ، وإني غير جدير بالأخوّة . وإذا كنت تحملته فذلك بسبب الانشراح الذي بعثه في نفسي .

ولما استعاد هدوءه ، استأنف حديثه لكنه وضع شرطاً مسبقاً ليكلّمني عن تلك الأمور هو أن أتصرف معه بكرامة .

لم أزعم قطّ أنّي أملك أفكاراً أصيلة عن الكرامة ، وإن ذهب بي الفكر دائماً إلى أنها فضيلة ذوي الكروش المتخمة . أمرٌ حدا بي إلى أن ألقي عليه دون تفكير خطبة نطقت فيها بما اتفق لي ، خطبة حظيت بحفاوة كبيرة ، وختمتها بجملة : أتريد منّي كرامة ؟ أعطني نقوداً! وقد لقي ذلك استحساناً كبيراً . تذكّرت تلك اللحظة ذلك الحكيم الإغريقي – ويبدو لي أنه إسوتيلث – لما كان يخطب في مجلس الشيوخ : «أتريدون أن أحرّك الأرض ؟ نعم ؟ إذاً ، أعطوني نقطة ارتكاز أو دعم» .

أحسست بأن عظمة التفكير وأناقة الموقف اللتين كان يمتلكهما في تلك اللحظات ، هما على مستوى جمال دافني وكلويه ، أو شرف كوسمه وداميان . الحمد لله الذي هو في السماء ، وأعدّ كل شيء بقدر! وكيف لا تتأسس شهرة خطيب بعد خطب قليلة كتلك الخطبة ؟

* * *

٣

لما نُصّبتُ رئيساً لغرفة تجارة ميامي بعد عشر سنوات من ذلك ، ومديراً للجمعية التعاونية فيلا نتروبيك ، خطرت على بالي ذات يوم بيتانثوس بغتة .

عانيت صراعات داخلية رهيبة كانت روحي تخرج منها ممزّقة في العادة وأخيراً أعددت متاعي ورحلت .

وكنت كتبت قبل الرحيل بطاقة لسكرتير الغرفة تقول .

في بيتانثوس مساعد طبّاخ
يدعى سيرافين
يطبخ الحمص
في طنجرة بابين
غود باي

* * *

لبث خوانيتو فترة وهو يتلجلج .

سيقضي عليه الكحول! – كان يقول دون دافيد .

صاح دون لورنثو ساخطاً :

– أيمكن أن يترك دائماً كلّ شيء معلّقاً دون إنجاز ؟

دون إيباريستو

ذات صباح ، كان دون إيباريستو يقوم بنزهته المعتادة على رصيف الميناء حوالي الساعة الثانية عشرة . أنتم تعلمون إلى أي دون إيباريستو أشير ، إلى دون إيباريستو ديثيلا ربان مركب تجاري متقاعد .

على سيف البحر كان الخوري غومرْسيندو يغذّ الخطا مسرعاً .

– إيه ، دون غومرِسيندو! إلى أين ذاهب بهذه العجلة ؟

– لأتلقى اعتراف مُحتضر ، يا دون إيباريستو .

وسكت دون إيباريستو ، فقد كان يتصور الوضع . كان المسكين مانويل بلغ من العمر عتياً . كان يشبه نورساً عجوزاً . لكن ، ليتك رأيته منذ سنين خلت ، حين كانت تروق للناظر رؤيته ، وهو راجع من رحلة بحرية بمركبه الذي يجعله بمراوغتين اثنتين في مهبّ الريح ويدخل نويبا خينوبيبا على خليج لاكورونيا .

ضاع دون غومرْسيندو بين بيوت البحّارة المصطفّة عند نهاية الرصيف كتلك الصناديق العتيقة المودعة سنين طوالاً في مخازن الجمرك ، وقد بدا التأثّر على وجه دون إيباريستو الذي نهض مرحاً في الصباح كالدلفين ، على حدّ قوله . ومكث فترة واقفاً ممعناً النظر في الأمواج التي تروح وتجيء ، أربع موجات صغيرة ، وواحدة كبيرة ، أربع موجات صغيرة ، وواحدة كبيرة ، بتماثل تام دائماً ، محدثة حفراً في الشاطئ أثناء المدّ ، مخلّفة دائماً على

الرمل قواقع محار وبطلينوس ذات ألوان شتى ، أثناء الجزر . وكان يعلم أنّ مانويل لن يبلّ من مرضه ، لكن ،... ما أشقّ البقاء دون صديق يمكنك أن تقول له : أتتذكر تلك الليلة في رأس هورنوس ؟ دون أحد ما تستطيع أن تنظر إلى نفسك فيه وكأنك تتراءى في مرآة! باه ، بعداً للأفكار الحزينة! سار دون إيباريستو أسفل الرصيف وهو يصفّر على كره تقريباً ببعض الألحان من لالوثيا لدونيزيتي . بعداً للأفكار الحزينة! هيا بنا نر السيد ليونثيو . لأن دون ليونثيو سيقصّ علينا دائماً قصّة من بلده .

دون ليونثيو إستريبيرا كان يضع على عينيه نظّارة من فضّة إذا سار في الشارع... كان عائداً إلى صيدليته التي وصلها ودون إيباريستو معاً .

– ما أشق هذا اليوم ، يا سيد إيباريستو!

– ما وراءك أنت أيضاً ، دون ليونثيو ؟

– اسمع إذاً : ذهبت لعلاج ابن الموظف العقاري من حيّات البطن ؛ ثم هُرعت لجلب أقراص مسهّلة من الجلبا ؛ والآن ، ها هو المسكين ، مانويل... يوم شاق ، يا دون إيباريستو ، يوم شاق!

– أوّاه! أنتم – أهل الداخل – لا ترون غير الصعاب في كل مكان .

ثم دخلا . جلس دون إيباريستو وقبّعته البحرية المقلمة ما تزال غاطسة في رأسه حتى أذنيه ؛ وخلع دون ليونثيو معطفه وارتدى سترة عتيقة من الجوخ السميك يلبسها عادة في البيت .

– إذاً ،... كيف حال المسكين مانويل ؟

– سيئ ، ما لم تحدث معجزة .

ثم لبثا فترة طويلة صامتين .

– وماذا عن الفاسق ابنه ؟

– يقول إنه لا يريد أن يعلم شيئاً عن أبيه .

- هوم! خير للمرء ألا يُرزق بأمثاله .

- كما صنعت أنت ، سيد دون إيباريستو ؛ أليس كذلك ؟ حبّ في كل مرفأ ، وفي سن الشيخوخة... باه! ومن يفكر في الشيخوخة ؟ كنا نقول ونحن في الثلاثين : في الشيخوخة... سيكون الله في عوننا!

وتجرأ دون إيباريستو على الابتسام .

- لا ، يا سيد ليونثيو ، لا تضحك! حبّ في كل مرفأ : أسطورة جميلة! من يفكّر في الشيخوخة ؟ في الشيخوخة سيكون الله في عوننا! والمشفى مفتوحة أبوابه لكل الناس .

ظهر دون غومِرْسيندو في عتبة الصيدلية . ولما وقع بصره على دون إيباريستو سأله :

- أتذكر يا دون إيباريستو ، ما كنا نتحدث به في بيتك ذات ليلة ؟ أما كنا نتكلم عن القابلية والاستجابة ؟ أتتذكر ؟ إذاً ، الرجال دون أبناءهم كالشعراء دون عمل شعري ، أو كالقابلية دون استجابة لنداء الرب! يقول البروتستانت إن الأرواح تخلص سالمةً بالإيمان . لا تلتفت إليهم . الإيمان دون عمل إيمان ميت . املأ الدنيا دوياً ما دمت حياً . لكن ، إذا مت... ، ماذا يبقى منك بعد الموت ؟ آه ، يا دون إيباريستو! ما أتعس من لا يخلف ابناً يذكره! وما أتعس الشاعر الذي يُدفن وشعره ، الإيمان دون عمل إيمان ميت . هو كقابلية أو أهلية دون استجابة!

غيّر دون إيباريستو الموضوع ، بل بالأحرى ذهب إلى صلب الموضوع :

- وماذا عن المسكين مانويل ؟

- وضعه سيئ ، يا سيد إيباريستو ، سيئ جداً ، تركته يُحتضر!

ولبثوا فترة طويلة أخرى صامتين حتى ما كان يُسمع هسيس ذبابة ، وإنما كان البحر وحده يسمع بعيداً كضوضاء قوقعة ، وهو يروح ويجيء : أربع

موجات صغيرة ، وواحدة كبيرة! أربع موجات صغيرة ، وواحدة كبيرة!

دُقت الأجراس معلنة عن موت أحد . ورفع دون ليونثيو الذي كان من أرض الداخل صوته فوق الصمت قائلاً :

لنصلَ صلاة أبانا : على روح المسكين مانويل .

أما دون إيباريستو الذي كان رجل بحر فقال بصوت مرتعش تقريباً .

- بل صلاة أخرى ، يا دون ليونتيو ، صلاة أخرى ، لطالما صليت صلوات كثيرة لسيدتناديل كارمن شفيعة البحارة .

* * *

عمي آبيلاردو

١

عمّي آبيلاردو قصير القامة ، ضئيل الحجم كنابليون ، حسب زعمه ، أو ككانت الفيلسوف العقلي ؛ أو مثل كروموبل الذي بثّ الذعر ذات مرة في صفوف الإنكليز . كان عمي آبيلاردو ذا شعر أبيض ، وبزّة رمادية وربطة عنق سوداء . وكان يملك أيضاً سيارة يبدو أنها لا تسير ، وزورقاً يبحر في مياه بارّوته ويدعى مارتينيث . كانت زوج عمي نرويجية ذات ميول روحانية تدعى غريتا . غريتا تومْسن ، وكان لها تسعة أبناء كلهم من بتانثوس ، وهم شقر جميعاً وحالمون كأميرات روبين اللاتي يضنين من الحب ؛ أو كأمراء الدانمرك الذين يتشبهون في صغرهم اعلانات الحليب المكثف .

كان لدى عمي آبيلاردو أيضاً بيانو ذو ذيل ، يُحدث شيئاً من الضوضاء المحببة إذا دُغدغ كأنه قط . ليس قطاً من قطط الشوارع القبيحة البيض والسود التي تقضي الليل وهي تموء فوق السطوح . لا ! وإنما كتلك القطيطات المدللة ذات الألوان الجميلة ، التي تسير في القاعة كدوقاتٍ ذات نظرات شامخة نبيلة وملامح هادئة أنيسة . وآهاً لبيانو عمي آبيلاردو الذي يبرز حشاه دائماً متى رُفع الغطاء عنه ، ويحدث برْين - برين - بيرّين كقرقف ، إذا لُمس بلطف طاقم أسنانه الطويل الأبيض والأسود!

بنات عمي كن يتعلّمن الصولفيج على البيانو . بنات عمي يسمّين بأسماء جميلة . فالكبرى ، وقد صارت متزوّجة ، تُسمى بيبيتا . كانت بيبيتا تستذكر فالساً كانت الجدّة تغنّيه على البيانو حوالي عام ١٩١٨ أو ١٩٢٠ .

اعزفي هذا الفالس ، بيبيتا!

اعزفي هذا الفالس ، يا جميلة!

اعزفي هذا الفالس

اعزفي هذا الفالس ،

إنه حلم حياتي الوحيد .

على إيقاع هذا الفالس ماتت – كما تعلمون – المسكينة كاتالينيتا التي لم تملّ الانتظار قطّ .

كنت وبنت عمي بيبيتا نسمعه مفتونَيْن جالسين على الصوفا ، في حين كان خيالنا يطير بعيداً جداً ، إلى ما وراء نوتات البيانو التي كانت تفرّ من نافذة الشرفة المفتوحة . كانت بنت عمي تجلس إلى بيانو عمّي آبيلاردو ، وكانت تعزف «اللحظة الموسيقية» لشوبرت ، وفالسات شوبان لما اكتسبت مهارة جيدة في العزف .

بنات عمي الأخريات كنّ يسمينّ بأسماء جميلة أيضاً . فقد أطلق على إحداهنّ اسم بنت ملك : كريستينا . وعلى أخريين اسم زهرة ، ونسيم بحري ، أي مارينيا وتشيروكا . أما الصغرى التي قُدّت من جلد الشيطان ، فكانت تدعى ماروتشا ، وكانت تعزف أيضاً جالسة على مجلّدين ضخمين من الكيخوته . ولكن ، ها هي اليوم صارت صبيّة .

* * *

٣

نزل عمي من العربة ، من هذه العربة التي لا يعلم أحد كيف تسير . وصعد شارع ريال مكلّماً ابن أخيه فرنسيسكو خوسيه ، الذي كان طويلاً نحيلاً كصنوبرة . عمي آبيلاردو كان على وفاق جيد مع ابن أخيه فرنسيسكو خوسيه . كانا يسيران معاً دائماً ، ويلعبان كل يوم مبارتيهما بالتشابو...

فرنسيسكو خوسيه كان يكسب في العادة كل مبارياته تقريباً مع عمّي . لكن عمّي لم يكن ينقبض ، بل كان يعزّي نفسه قائلاً .

– باه! ما تقوم به ليس لعباً بالتشابو ، ولا هو شيء ، بل هو يشبه ضرباً عشوائياً بالعصيّ .

كان فرنسيسكو خوسيه يبتسم ابتسامة بليدة ، ويظل الأمر هو هو سواء اليوم أم اليوم السابق عليه ، اليوم الفائت أم اليوم القادم .

إذا جلس عمّي آبيلاردو إلى البيانو ، كان ابن أخيه فرنسيسكو خوسيه يقبع في مقعده الكبير المريح ليستمع إليه . وكان عمي يعزف سيمفونية من تأليفه ، وتبدأ هكذا : لا – لا – را – بيرّين .

ثم كانا ينصرفان إلى تناول الشاي ، والنظر إلى رسوم هيليودوريتو ، ابن عمي الأكبر .

آبيلارديتو ابن عمي التاني من الذكور الذي كان ينبزه الناس بلقب يشبه اسماً قطالونياً ، كان يقضي وقته وهو يجوب بقاربه الخليج كأنه سمكة . وكان يسجّل اسمه في كل سباق للقوارب . وكان قاربه يصل آخراً . لكنني لا أعرف معنى الظاهرة الاجتماعية الغريبة التي كانت تجعل الناس يصيحون إعجاباً .

– ما أقلّ حظّ هذا الصغير ، ما أقله! ألمعنت النظر في ذلك الزيكزاك الحادّ الذي قام به ؟ أرأيت كيف طاف حول العوّامة ؟ كانت مناورة معلم حقيقي .

* * *

٣

كان عمي آبيلاردو ذلك اليوم غاضباً . فقد كان اختصم وبيريت عازف البومباردين في السيمفونية ، أما بيريت فهو – حسب رأي عمي – ما كان يفقه كلمة واحدة في الموسيقى .

– لا يعلم ما هي الموسيقى – كان يقول بملء قناعته – ليس لديه فكرة ما عنها .

كان بيريت سميناً وقصيراً ومبتذلاً ، ويحسب نفسه عبقرياً ، ويعزف على البومباردين إن طلب إليه ذلك . وكان يقضي نهاره في لعب لعبته المفضّلة/ السبعة ونصف/ والغشّ فيها . ولم تكن له مهنة معروفة ، وإذا سئل كان يجيب ببلاغة :

– وظيفتي ، ببساطة ، فنيّة ، يا سيد .

كان عمي آبيلاردو غاضباً . لأن بيريث ينكر ما هو بديهي . أما كان هذا الوقح يقول إن موزارت لا يعرف رأسه من قدمه ، وإن شوبان متحذلق ، وواغنر ما كان يعرف الصولفيج ، وبيتهوفن يخلو من الإلهام ؟

آوّاه! ما أجرأ عازفي البومباردين! وما أجسرهم! وما أقلّ حياءهم! نعم ، يا سيدي ، هم قوم ينقصهم الحياء!

كان بيريث يبتسم عند النقاش بسمة رجل خلع العذار . بسمة كانت

تبعث على الغضب .

وكان عمي سأله غاضباً في حوار أخير :

– تعالَ حتى نرى . السيمفونية السابعة ، ماذا تقول لي عن السمفونية السابعة ؟

ووجد بيريث فرصته في إغاظته ، فاكتفى برسم ابتسامة رجل خبير ، وصاح بهيئة تنمّ عن الاستياء :

– السابعة ؟ ماذا تبغي مني أن أقول ؟ ألحانها ليست سيئة التوزيع .

وخرج عمي آبيلاردو من جلده .

* * *

❀

– حينئذ ، انطلق بيريت و... أتعلمون ما قال لي بوقاحة ؟ ألحانها ليست سيئة التوزيع .

– السيمفونية السابعة ؟

– نعم السابعة . كيف يبدو لكم ذلك ؟

وأخذت الدهشة تقفز في قاعة أولد كلوب من شخص إلى آخر كأنها كرة تنِس .

– لكن ، أعن سيمفونية بيتهوفن السابعة يقول ذلك ؟

– نعم ، يا سيد ، عن سيمفونية بيتهوفن السابعة .

– شيء لا يصدّق .

– شيء لم نسمع بمثله .

–شيء...!

أما السيد غارثياميرو الذي يلبس ثياباً سوداً دائماً ، ويدخن التبغ دائماً ، ويطلق النكات دائماً ، فقد سُرّ بالإهانة التي لحقت بعمي .

– لكن ، على مهلك ، سيد آبيلاردو . ألك قال هذا الكلام عازف البومباردين بيريث ؟

– نعم ، وأمام ابن أخي فرنسيسكو خوسيه .

– أهذا الطويل القادم من مدريد ؟

– نعم ، هو .

لكن السيد سوتون السمين العجوز المولع بمشاهدة مصارعة الثيران ، وملاحقة الفتيات المارات في شارع ريال ، قال لعمّي آبيلاردو خالطاً الجدّ بالهزل :

– ما يجري أنك لا تعرف معنى الفنّ جيداً ، أتحب أن ألقي عليك أبياتاً من الشعر نظمته لروسا بنت آليكانته ؟

ولم يمهله السيد سوتون حتى يجيب . بل وقف على مقعده مترنحاً وسعل وتنحنح وغرغر وبحث عن أوراق كثيرة كان يضعها في جيوبه ، وأخذ ينشد بصوت أكل نصفه الرشح ، والنصف الآخر الخمر .

روسا بنت آليكانته ،
يا امرأة طويلة جميلة ،
ضممت إلى اسمك زهرة
موسيقى صوتك العذب .
نظرتك ماسية
وضحكتك رقيقة
وقدك غصن بان .
أنت رفيقة الفراشة
في حيائها وكبريائها ،
سوء بسواء .

– إيه! كيف يبدو لك ؟

وصاح السيد غارثياميرو وهو يكاد يختنق بنوبة سعال .

-أحسنت ، يا سوتون! عاشت الرداءة وحشو الكلام!

وما كان عمي آبيلاردو يعرف أيضحك أم ينقبض .

كان ابن أخيه فرنسيسكو خوسيه ماراً تلك اللحظة في الشارع ، فدق عمي بخاتمه دقات خفيفة على زجاج النافذة العريضة .

– انتظرني . سأذهب معك .

وانتظر فرنسيسكو خوسيه حتى وصل عمي مرتدياً معطفه .

– ما أجمل بلدتنا بانقسامها بين عازف البومباردين وأفكاره ، وهذا البربري سوتون وأشعاره!

– أتحب أن تذهب لرؤية البحر ؟

– نعم ، هيّا بنا .

* * *

⓪

كان البحر صافياً مصقولاً كصحن . كان ذلك حوالي المساء ؛ وكانت قلعة سان آنطون ترتسم على سماء الخليج بطينة كسلى كأنها وحش راقد .

– أتعجبك البلدة ، يا فرنسيسكو ؟

– كثيراً ، يا عم آبيلاردو . إنها جميلة جداً .

كان عمي وابن أخيه يشعران بالراحة بوجودهما وحيدين يتنزّهان على شاطئ البحر بعد أن يفرّا من المدينة وعازفيها وشعرائها .

– أهنا يقوم آبيلارديتو ببطولاته بالقارب ؟

– نعم ، هنا .

لبث عمي آبيلاردو لحظة صامتاً . ثم قطع الصمت فجأة كبرق يومض دون إنذار في الأفق .

– اسمع ، أتحسب أن هذا الصبي يعلم... ؟

– أي صبي ؟

– آبيلارديتو ، يا رجل ، آبيلارديتو ، أتحسب أنه يعلم... ؟

– يعلم ماذا ؟

– يعلم أي شيء هو القارب ؟

– أكثر منك ومنّي... يا رجل .

– ألا يكون علمه مثل علم عازف البومباردين ؟

– لا أظنه كذلك . آبيلارديتو صبي جاد .

– أو متل علم سوتون ؟

– لا ، يا رجل . سوتون كارثة .

– حقاً ، حقاً ، لكن ، تأملْ : هو لم يربح سباقاً واحداً خلال عام .

– وماذا في ذلك ؟ هذه مسألة حظ... لكن ، تلك المناورة ، أتتذكرها ؟ أتتذكر كيف طوّق العوّامة سانتا كريستينا بقاربه ؟ آه! نعم ، تلك كانت مراوغة رائعة .

– حقاً ، حقاً ، وتلك الطريقة التي جاء بها ناشراً شراعه كله باتجاه الريح ؟

– وتلك... ؟

قضى عمي وابن أخيه بقية المساء وهما يتذكّران مآثر آبيلارديتو . كان عمي آبيلاردو وابن أخيه فرنسيسكو خوسيه حالمين ؛ ولذلك كانا على أتمّ الوفاق .

كان الليل أطبق على الدنيا . وكان الرصيف مظلماً ظلمة كاملة . وكان وحده مصباح المراكب الحزين يتلألأ في أعلى السواري كنجمة منسية . وكانت المدينة وراءهما تبدو مغسولة بالنور .

ولربما كان عازف البومباردين يقول بين ورقة وأخرى من السبعة ونصف .

– شوبان ؟ شوبان متحذلق .

وقد يكون السيد سوتون الشاعر يقف في الأولد كلوب منشداً

روسا بنت آليكانته

يا امرأة طويلة جميلة.........


في ظلال الكنيسة

١

كانت دونيا خوليا قالت لأحفادها .

– ها هو عيد الميلاد قادم . فإذا كنتم هادئين فسوف أدعوكم للطعام .

لكن أعياد الميلاد حلّت لما انتقلت دونيا خوليا إلى الدار الآخرة كعصفور صغير حتى دون أن تتزحزح من مكانها .

حدث ذلك في اليوم السابق على العيد . وطافت الجنازة التي سار في مقدّمتها أبناؤها يتبعهم عدد كبير من العربات ، شوارع المدينة المغطاة بالثلج في طريقها إلى المقبرة جاعلة السكان يزيحون الستائر وراء نوافذ الشرفات الباردة ، ومثيرة الخوف في فرح الأطفال الذين كانوا يغنون أغاني الميلاد على صوت التمبومبا البعيد والخشن .

يا للمسكينة دونيا خوليا! لقد ترك رحيلها فراغاً كبيراً في المدينة وفي أعياد الميلاد... آي ، ما كان أحزن أعياد الميلاد تلك! وما أشد خواءها! مثلها مثل أعياد الميلاد الأخر التي صارت بعيدة نسبياً لما تفشّى الطاعون أثناءها ؛ أو مثل أعياد الميلاد الأقرب عهداً منها . لكنها قاسية أيضاً وشغلتها حرب مليلة .

أمّا دون استانسلاو ، ودون بيّو ، ودون خوان ودون ميغيل ودون

لورنسو فقد هوت رؤوسهم على صدورهم بألم وحزن .

– ما أكثر المفاجآت التي تعدّها لنا هذه الحياة ، هذا العالم الدنيء! من كان يخطر على باله ذلك حتى الأمس القريب!

وكان دون سباستيان صرف طلاّبه في إجازة . ولو لم يفعل ذلك ، أكان يستطيع أن يقول في اليوم التالي بهيئته الجليلة دائماً : ولما أطفأ نجم النهار جمّته النارية في بحار الغرب... ؟

هذا أمر لا يعرفه أحد . ومن يستطيع أن يقرأ أغوار القلوب التي لا يمكن سبرها ؟

* * *

٢

في المدينة التي تضيع جذورها في ظلمات القرون الوسطى الغامضة ، كنيسة ارتعدت أجراسها تلك الليلة رعباً ؛ وأحسّت حجارتها الغرانيتية التي أتت عليها قرون شتى ، بثقل السنين الطويلة وبمرارة العيش . كانت كنيسة كالكنائس الأخر ، يديرها رجال (سنذكرهم بالترتيب إكراماً لدون سباستيان الذي سيشكر لنا ذلك في أعماق ضميره) وهم التالون .

دون استانسلا المدير . كان ذا لحية جميلة وأحمر الوجنتين كتفاحة ، وكثيرَ الكلام وورعاً كرئيسة خدم ، وناحل الجسم يرتسم الرضا على هيئته المؤثّرة والملائكية تقريباً .

مساعدوه الأربعة هم :

دون بيّو ملقي الخطب المقدّسة وكان ذا صوت خشن طنّان .

دون سنتياغو أب الفقراء ومنظّم جمعيات الأخوّة ، والتعليم الديني . وكان الناس يؤثرونه جميعاً بالاحترام .

دون خوان الذي يشبه شبهاً غريباً فيغيرئيدو خادم الجدّ .

دون خوليو : كان نحيلاً وممشوقاً كجارية .

المرتل دون ميغيل غارنيا . كان قلقاً قصيراً له صوت آنسة متارة ،

ويصطبغ وجهه بالحمرة إذا تكلّم .

مساعد المرتّل دون لورنثو سلغادو . وكان كبير الحجم وأشعر كأنه شجرة .

عازف الأرغن دون خيسوس . وكانت له عينا فنّان زرقاوان ؛ وجمّة فنان طافية ؛ وربطة عنق فنان كئيبة ؛ ويدان طويلتان ناتئتا العظام كأنهما يدا قديس .

للكنيسة ثلاثة أبراج : البرج السمين ، وبرج الرحمة ، وبرج الفرنسي ؛ ولها ساعة كانت تجعل الأجراس تنثر بين ربع ساعة وآخر ، أنغامها العذبة . لتبثّ الرجفة في نفوس الأحياء ، كانت تنثرها بين ربع ساعة وآخر ، قدّام المسيرة المحتومة نحو الموت .

عبارة «الأنغام العذبة» نطق بها أول مرة ، دون بيّو منذ سنين كثيرة أثناء مسابقة شعرية استضافها . وقد هنأه الأسقف والسيد الحاكم بذلك . وكرّمه أصدقاؤه تكريماً صغيراً ، فأهدوا إليه لوحة من فضّة نقشت عليها كلُّ التواقيع السامية . كانت اللوحة حينئذ ملساء ناعمة برّاقة ، وصارت اليوم منسيّة معلّقة على أحد جدران المستودع القديم قرب نصب يمثّل نزول المسيح عن الصليب ، يقال إنه ذو قيمة كبرى .

وقد أتى على كل ذلك زمن طويل . فمن عساه يتذكّر ؟

* * *

٣

كانت الكنيسة تضمّ البيوت حولها كما تضمّ الدجاجة أفراخها ، وكانت كل البيوت تبدو متشابهة تحت دثار الثلج الأبيض . ومن يرها على هذا الشكل لا يعلم ما يحويه هذا العالم من الهموم الخطيرة ، والمشاكل الدقيقة العميقة التي تحرص عائلات كاملة على عدم حلّها ، ومن المباهج العابرة التي تدوم يوماً واحداً كيوم عرس ، أو تدوم بعض ساعات دوام طقس العماد أو المناولة الأولى .

ومع ذلك ، لو أتيح لنا الآن أن نراها في ضوء شمس الصيف الساطعة العنيفة ، لتحقّقنا من عدم وجود بيتين يشبهان بعضهما بعضاً ، ومن أن بعضها يعلو البعض الآخر ، وأن كلاً منها يتوهج بألف بريق ، أو بألف ظلّ مختلف .

لكن ، ما كان أجمل المدينة ، وما أشدّ تباينها!

فوق هذه السقوف التي تشكل المدينة كلها ، كانت الكنيسة ترفع مسلاّتها التي يفوق جمالها كبرياءها ، تشمخ بأبراج أجراسها الرومانية الخضر السود والمدرّجة والقديمة قدم الجبال ذاتها تقريباً .

كان بيت دونيا خوليا ودون سباستيان في السفح الأدنى عند خروجك

من المدينة . أمامه ينبسط سهل دثره الشتاء القاسي بالثلج ، سهل ذلول في مدرجة الرياح كدروب بيت لحم حيث نزل الملوك المجوس الثلاثة بصحبة جيادهم وجمالهم ، وخدمهم وحمولتهم الغامضة الآسرة من العجائب .

بيت دونيا خوليا ودون سباستيان كان ذا ثلاثة طوابق ، ونافذة شرفة مشرعة لها درابزين من حجر عُلِّق عليه شعار يمثّل ترساً ، تحيط به أشكال مغزلية وخوذة تميل جهة اليسار ، «لا أدري مَنْ مِنْ أجدادنا يمكن أن يكون ابناً غير شرعي! » كانت دونيا خوليا تقول عادة لما كانت تستطيع أن تقول أشياء لمحدّثيها من رجال الدين ونزلاء البنسيون والأساتذة . «لست أدري! » . وعلى الباب مقرعة كبيرة وسميكة من البرونز كانت دونيا خوليا تأمر برفعها ليلاً أيام كانت تستطيع أن تأمر .

- إبقاؤها إفراط في الثقة والأمان!

* * *

ع

كان دون سباستيان أستاذاً للتاريخ في المعهد . وكان يُلقي درسه المعتاد في الساعة التاسعة كلّ صباح . وكان يشرح كلّ عام أحداثاً تاريخية هامّة ومتطابقة ، بكلمات متماثلة ومنتقاة بعناية ، كان قد حفظها في ذاكرته على مدى خمسة وثلاثين عاماً من العمل في التدريس - كما يقول - . وكان يسرّ أن يكرّرها رتيبة دقيقة كنواس النواسات ، كمرور الساعات على المدينة الجامعية الدينية على مستمعيه من الفتيان وعلى شبيبته التي تتجدد كل عام تجدّداً مستمراً لا يعرف تبديلاً .

كان دون سباستيان يتحدث كخطيب ، كخطيب حقيقي مفوّه جداً . وكان لخطبه الفضفاضة الدوغمائية من طراز كاستيلاري ، من طراز خطب أستاذ معهد من نهايات القرن التاسع عشر ، أثر مدهش يفيض من وجهه الفرنسيسكاني . وكان أسعد يوم خلال العام الدراسي يوم يُتاح له أن يقول :

- ولمّا أطفأ نجم النهار في بحار الغرب جمّته النارية ، أنشد الجنود جميعاً راكعين صلاة الشكر : بحمدك اللهمّ ! جديرة بنصر ظفروا به ذلك النهار المجيد .

ما كان أجمل ذلك كله حقاً! وفوق ذلك ، ما أعجب أن تؤدّي واجبك الوطني المقدّس من فوق منبر الدرس!

وكان دون سباستيان يختتم دروسه بلمسة حلوة : فكان يتنحنح ، ثم يحفظ نظارته الناعمة كالملقط مع سلسلتها المعروفة ، ويشرب آخر جرعة من الماء ويبتسم تلك البسمة الرقيقة التي تكاد لا تُلمح وتكافح لتفرّ عبر لحيته ، وينطق بجملته التي يكرّرها كل صباح : أترككم في حفظ الله...

وكان طلابه يحبونه ، يحبونه حباً جمّاً . هو ما كان يعبس قطّ في وجه أحد ، وما كان يقطّب حاجبه إذا تكلّموا ، أو وصلوا متأخرين ، ولم يجعل همّه قط أن يرسب في صفّه أحد .

أيستطيع الآن بعد ذلك كله ، ألا يمنح طلاّبه إجازة ، أو أن يقول لهم بهيئته الجليلة المعتادة ما كان يقوله عن النصر ، وعن بحار الغرب ، وصلاة الشكر والجمّة النارية .

* * *

٥

وجعل دون سباستيان من الضعف قوّة ، وتشجّع .

– فليأتِ الأطفال للطعام .

فما كان بمستطاع دون سباستيان أن ينسى أن دونيا خوليا قالت لهم قبيل رحيلهم إلى السماء كعصيفير حتى دون أن تتزحزح من مكانها .

– عيد الميلاد قادم . فإذا كنتم هادئين طيّبين سوف أدعوكم للطعام . والأطفال... ما ذنب الأطفال حتى لا يدعوهم أحد ، إن صاروا هادئين طيّبين كالقدّيسين ؟

كان دون سباستيان يطوف حول المائدة مبدياً اهتمامه بكل شيء . وكانت المائدة تبدو بمظهر برّاق بغطائها الأبيض وآنيتها الخزفية القديمة المنقوشة ، وصحونها الملأى بالنقل ، وفواكهها المجفّفة وحلواها من الماثبان المصنوعة على شكل دمى .

– بالنسبة للأطفال لم يحدث شيء . أتسمعنني ؟

كان سباستيان قال ذلك للخادمات ، ليضيف فوراً وهو مطرق تقريباً .

– يا للمساكين الصغار!

كانت الصور التي تمثل الميلاد معروضة على منضدة طويلة في قاع غرفة

الطعام ، وتتلألأ أمام عيون الأطفال المدهوشة بألوانها الذهبية الأرجوانية ، ونشارتها المصبوغة ، ومراياها الصقيلة التي تشبه البحيرات . وكان يتدلّى عند عتبة الباب نجمة من ورق الفضة مربوطة بخيط يكاد لا يُرى ، وكانت تتأرجح بينا الأطفال يتحادثون .

- وأين الجدّة ؟

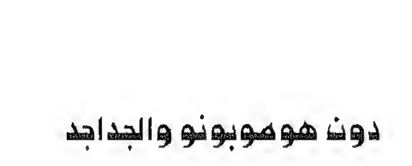
لم يعرف دون سباستيان بماذا يجيب . نظر إلى النجمة المتدليّة من سقف الحجرة ، وتنحنح قليلاً كما يفعل في الدرس .

خرج على مهل من غرفة الطعام ، واحتبس في مكتبه ، وارتمى على الصوفا ، وجعل رأسه يهوي بحزن على صدره كالسيد المدير ، كرجال الدين الأربعة كالمرتل ومساعد المرتل وعازف الأرغن .

وكان الفتيان العازفون على الثامبومبا يتابعون عزفهم الرتيب طائفين بشوارع المدينة المتلفعة بالثلج .

وكانت الملاءة البيضاء تلفّ كلّ شيء .

* * *



دون هوموبونو والجداجد

كان هوموبونو يعيش في مدينة أجداده القديمة . وكان فيلسوفاً ريفياً بالمعنى الحق لما نسميه فيلسوفاً ريفياً . يلاحظ ذلك عليه من بنطاله المخملي الذي لم يكن بلون زيتوني كالبناطيل المبتذلة التي يلبسها العمدة أو رئيس محطة القطار . وإنما هو بلون أرنب من عرق أصيل ، لون رمادي لؤلؤي حالم يتلألأ بطيف واسع من أجمل الألوان المعروفة في تلك الأمكنة حيث الاحتكاك بها يوماً بعد يوم ترك فيه أثراً لا يُمحى .

كان دون هوموبونو يحب الزهور والمروج وعصافير السماء والحشرات التي خلقها الله لتندس في جحورها الأرضية أو في شقوق الصخور .

فإذا ما عاد صبي إلى البيت حاملاً عشاً في يده أو جدجداً داخل صفيحة ؛ أو زوجاً من الجنادب في جيب سترته ، فكان يفر دائماً من أمام دون هوموبونو الذي يأمره لا محالة أن يعيد للأسير حريته .

– أيرضيك أن يصنع بك هذا ؟ – كان يقول له .

وهو سؤال ليس له جواب . فلا يرضى مخلوق أن يُصنع به نصف ما يصنع هو بالجداجد . ومع ذلك ، كان دون هوموبونو يضيف مازجاً اللين بالفخر ، وكأنه يريد أن يُضفي مزيداً من القوة على رأيه :

– ها أنت ترى . لو شاءت الأم الطبيعة...

وكان يقطع الكلام كمن أُرتج عليه . ذلك بأنه كان يتسلّى بالفكرة التي

كان ينوي أن يفصح عنها .

- لو شاءت الأم الطبيعة لصنعت بك عين ما تصنعه .

وكان يبتسم راضياً ، والطفل ينظر إليه ذاهلاً وهو يفكر : حقاً ، دون هوموبونو على صواب . وخير لي لو أطلقت سراح الجدجد . فكرْ فيما لو خطر للأم الطبيعة! كلا! الأجدر عدم التفكير في ذلك .

وكان الجدجد يسقط على الأرض ويرفع في الهواء قرنيه القصيرين ، ويهرع للاختباء تحت أول أجمة .

* * *

ليالي آب بطيئة ثقيلة كالحجارة حتى في تلك المدينة المنتجعِ الصيفي .

وكان دون هوموبونو المؤرّق أرقاً كاملاً ، مثار الأعصاب .

تباً لهذا الجدجد!

وكأنّ الجدجد خلا له الجو فراح يتابع أغنيته الرتيبة بذلك الترتيل الحزين الذي مكث ثلاث ساعات طويلة يردده .

اكري! اكري! اكري!... اكري!... اكري!... اكري!...

فَقَد دون هوموبونو الفيلسوف الريفي ذو البناطيل المخملية زمام عقله . فقدْ طفح الكيل حقاً . وكان الجدجد يتابع أغنيته اكري! اكري! على شكل يائس . اكري ، اكري! يجيب اكري ، اكري! يطلقه جدجد البستان . واكري ، اكري! يطلقه جدجد الطريق ، واكري ، اكري! يطلقه جدجد المرج المجاور . واكري ، اكري!...

لكن ، لا! هذا محال! ولا يمكن الاستمرار على هذا المنوال .

نهض دون هوموبونو يتملّكه غضب كالجحيم ، فأشعل الضوء... كان

الجدجد وسط القاعة مطلقاً على شكل أحمق صريره اكري! اكري! اكري!
وكأنه شيء مسلٍّ جداً .

بدا في البداية أنه لم ينتبه إلى شيء ، ثم توقف وخفّض من صراخه اكري! اكري! قليلاً ، وخطا خطوات صغيرات قصيرات .

نسي دون هوموبونو مواعظه وقد انعكست صورة الجريمة على وجهه ، والتهبت نظرته ، واتخذ مظهر التحدي حاملاً حذاءً في يده ، و......

كان الجدجد المبعوج البطن يشبه خرقة من تلك الخرق الحزينة الملقاة على الأرض بعد طقس عماد منتصف الليل .

* * *

الحق على الربيع

١١

الأرض رطبة وللحقل رائحة ما بعد المطر الحلوة . إنه الربيع . وقد أزهر الجلبان العطر ، وعادت أزهار العسل تتعلّق بالدروب . يبدو أن الحياة أمست أكثر شباباً ، ومن يدري إن كانت الأشياء اتفقت على أن تعيش بفرح أكبر . ارفع حجراً ، تجد الخنفساء التي تبرق كأنها من نحاس ، والحريش الذي يفر مسرعاً ويختبئ تحت الحجر المجاور ، أو الأفعى الصغيرة ذات الألوان اللامعة تختبئ أيضاً تحت بعض الحجار ، وقد تودي عضّتها بحياة المرء... وعاد الشحرور يغنّي من أعلى الكستناء ، والقرقف يتأرجح من جديد فوق أغصان التوت البري الدقيقة ، والزرازير تطير رفوفاً وأسراباً سوداً ، أما الذعرة ذات الذيل المفروق والمدبّب كورق الدفلى فصارت تقفز الآن من حجر إلى حجر على ضفة النهر : إنه الربيع الذي يبدو كأنما سكب دماً جديداً في عروقنا .

يختفي البيت داخل غابة من أشجار القسطل العالية التي مضى عليها ما لا يقل عن مئتي عام ، وينمو حول جذوعها اللبلاب الذي يرتفع صُعُداً حتى يختلط بأوراق الشجرة ذاتها . أشجار القسطل ضخمة جداً ، وتنمو أغصانها أحياناً نمواً مفرطاً حتى تتدلّى فوق الطريق وتعيق حركة المرور تقريباً . خلف البيت جناح للقطيع . وفوق الجناح بعض الغرف للعمال المياومين . أما وأن

أيار قد انصرم ، فكان العمال ينامون والنوافذ مفتوحة على مصاريعها .

بين القسطل درب تؤدي إلى الطريق العامة ، ودرب أخرى إلى المرقب . في المرقب شرفة من حديد ومقعد خشبي وقبة شكلتها أزهار العسل ونباتات متسلّقة رائحتها جد نفّاذةحتى تكاد تسبب الصداع . وإذْ كانت الأغصان التي تغطي المرقب لا تسمح بمرور ضوء القمر ليلاً ، فما كان بالمستطاع رؤية مسند المقعد الذي يمكن أن يُقرأ عليه نهاراً : كريستينا! تحت قلب يخترقه سهم... كان حفره بطرف سكينه عامل ليس من أهل البلد اضطرّ بعد ذلك إلى الرحيل دون عودة .

كريستينا ما كانت تنام في الجناح ، إنّما مع جاريتي السيدة في مستودع البيت حيث خُصِصن بحُجيرة وضع على طاقتها وعلى مصباحها ستارة من الكريتون .

كريستينا حلاّبة . أمّا خادمتا السيدة فهما من المدينة ، فكانتا تنظران إليها باستعلاء وتزدريانها ، وما كانت هي تأبه بهما .

في الجناح ما كان يرقد غير الرجال وامرأة ما ، صارت عجوزاً لا خطر لها . كانت السيدة ربّة البيت حريصة على الأخلاق . فقد طردت كثيراً من الفتيات... أمّا العمّال ، فلم يكن لها سلطة عليهم . وهذا كان يغيظها أشدّ الغيظ . آه ، – كانت تقول – لو كان أمر هؤلاء الأوباش بيدي! وإذا ما أخذت عليهم شيئاً كانت تنقله إلى زوجها ؛ لكنّها كانت بعامّة تحظى بقليل من النجاح . لأن العجوز – وقد كان ذا طيش ونَزَق في شبابه – كان يقول دائماً بلهجة هي مزيج من الطيبة والرضا : "الحق على الربيع..." وإن كانت أعياد الميلاد لمّا تنقض... ثم يشرع في دقّ الأرض بعصاه دقاتٍ خفيفة كالشارد ذهنه ، أو يقرع بأصابعه ذراع المقعد ، أصابع رجل ريفيّ قوية ، يضع في إحداها خاتم الزواج وخاتمه الحديدي القوي الغليظ ، ذلك الخاتم الذي

جعله مشهوراً لمّا خلع في شبابه أسنان ابن عمه غيّرمو... وما إن يقول ذلك ، حتى يجتاز الباب وينطلق ليقوم بجولة بين الكستناء . وإذا ما التقى فتاة ما ، كان يحييها باسماً .

ذات يوم ، جعل كريستينا تبكي لما لقيها في الدرب المؤديّة إلى المرقب وراح يكلّمها . الله وحده يعلم ما قاله لها! وقد ضحكت منها مرغريتا إحدى خادمتي السيدة الكبيرة لمّا قصّت عليها ما جرى . لكنّ الطقس كان جميلاً في اليوم التالي ، فسلكت مرغريتا تلك الدرب وحيدة ودون أن تقول شيئاً لأحد ، مزيّنة رأسها بالأقحوان الأبيض والأصفر ، واضعة غصناً صغيراً من أزهار الجُريس في عنقها... كان "الأفندي" خرج في نزهة صغيرة . ولما رأته قالت له : صباح الخير ، سيدي . وقال لها سيدها الذي وقف وسط الدرب : صباح الخير ، يا مرغريتا ، يا بُنيّة . وسألها إن كانت لا تشعر بالبرد ، خاصة أنها تلبس بلوزة فوق ثياب النوم .

كانت مرغريتا تضحك ليلاً لما قصت ما جرى لها لإسْبرانثا . جارية الستّ الأخرى - وكانت كريستينا تتقلب وتتقلب في السرير وقد جفاها النوم - فنهضت طائشة اللب وانتعلت حذاءها وخرجت إلى الحقل ، لم يكن الطقس بارداً فاكتفت بلبس بلوزة فوق ثياب النوم .

كانت كريستينا تجيد تقليد الكوكو كما لا يقلّده أحد . وبعد خمس دقائق كانت تصعد درب المرقب بصحبة أحدهم . وفي المرقب طوّقها بذراعه . أنتم الرجال تثيرون خوفي... أبدو اليوم فاقدة العقل... هو ما كان يجيبها بشيء . لمّا عادت صعدت حجرتها في السقيفة واندسّت في السرير ، وراحت تتنصّت . لا مرغريتا ولا إسبرانثا كانتا عادتا بعد .

* * *

٣

تتبادل العصافير الحبّ مطلع النهار ، وتثير جلبة كبيرة بغزلها . وبينا العصافير تتبادل الحب ، يسير العمال في سبيلهم إلى الغابة واضعين البلطات على مناكبهم ، أو المنشار الطويل الذي يعترض بين عاملين يحملانه كل من جهة ، أو يركبون العربات التي تجرّها التيران في طريقها إلى الأراضي المزروعة بالفول والبطاطا .

تهبط كريستينا الدرب التي تؤدي إلي الطريق العامة حاملة الجرّة على كشحها . كانت ذاهبة للحلب ، وانحدرت فرحة باسمة معرضة بنظرها عن غابة القسطل حيث العصافير الصغيرة تغنّي ، وعن السراخس التي تنتصب حول الينابيع عالية بقامة رجل . ومتى تصل الإسطبل تحلب بقراتها جالسة على مقعد ذي ثلاث قوائم صنعه من أجلها الأجير الغريب .

لا مرغريتا ولا إسبرانثا كانتا استيقظتا بعد . وكذلك الستّ الكبيرة ما كانت تبكّر . لكن الأفندي ، نعم ، كان يفعل ذلك . وتستطيع أن تراه منذ وقت باكر جداً يتنقّل بين العمال مرتدياً سترته الكبيرة متمنطقاً بحزام من الجلد . كان في الستين من العمر . لكنه كان نضراً كالفتى . وكان يسرّح لحيته دائماً بعناية ، ويغسل يديه كلّ صباح .

وما كانت الآنسة تستيقظ باكراً أيضاً ، بل تصنع صنع أمّها . هي طويلة القامة وسمينة ومتحرّرة مثلها ، وتحمل اسمها ذاته... الآنسة تصغر السيدة بأربعين عاماً . وقد تغيّرت العادات خلال هذه الأعوام الأربعين . الآنسة في الثانية والعشرين ، (الستّ إذن ، أكبر سنّاً من سيّدها بقليل) ؛ وإذا استيقظت ترتعد داخل قميصها الشفيف ، لكنّها لا تنهض ، بل تتقلّب في السرير وتظلّ مستلقية متدثّرة جيداً ، وناظرة من خلال الأعشاب المتسلّقة التي تطلّ على النافذة ، مستمعة إلى سقسقة العصافير . فكانت الآنسة تنام والنوافذ مغلقة دون أن تطبق الأباجورات ، لأنها كانت معجبة برؤية طلوع النهار كل صباح...

يصل الأفندي الإسطبل مستنداً إلى عصاه ؛ ويسأل كريستينا عن القطيع ويصطبغ وجه هذه باللون الأحمر ، وتجيب إنه في حالة جيدة . ثم يتوجّه صوب الغابة ليرى كيف يسير العمل في نشر الخشب . كان يبتسم على شكل غريب ، لكنه كان نشيطاً ومشّاء لا يكلّ .

بكت كريستينا مرة أخرى من شيء قاله لها السيد . لكنها لن تقول الآن شيئاً لمرغريتا... وتنهض ، وتقطف بعض شقائق النعمان وتضعها في فمها ، ثم تتابع الحلب إلى أن تفرغ منه ثم ترفع الجرة وتضعها على رأسها وتبدأ طريق العودة إلى البيت .

الأفندي الصغير نحيل وعيناه محاطتان بهالة زرقاء ، وجسمه مملوء بالبثور ، وهو يصغر الآنسة شيئاً قليلاً . تقول السيدة دائماً عند الفطور : هذه المبالغة في الرياضة شناعة ، شناعة! ويرتعد السيد الابن ، لأنه يعلم ، ووحده يعلم ، إلى أين تسعى إسبرانثا مدلجة كل ليلة . وكان السيد يقف إلى جانبه دائماً : "أهو نحيل ؟ أعيناه محاطتان بهالة زرقاء ؟ شيء طبيعي يا امرأة ، طبيعي جداً . الشاب في السن..." ويبتسم قبل أن يقطع الحديث

بعبارته : باه! الحق على الربيع...

الأفندي الصغير ينفر من كريستينا لأنه يجدها مفرطة في الفظاظة ، لكن البقّار على العكس منه ، لا ينفر منها لأنه فظّ مثلها . فقد كان همس منذ فترة طويلة في أذنها بشيء وهو يحتضنها ، وسمحت له بأن يضمّها إليه ، لكنها قالت له أن لا ، وينبغي له أن ينتظر إلى أن تضع شقائق في فمها .

كان البقّار مختبئاً بين السراخس ، وخرج منها وأمسك بكريستينا من يدها ، أما الجرّة فقد وُضعت على الأرض . بعد ذلك ، حملها عنها مسافة طويلة . وكانت هي مسرورة ، مسرورة جداً وكانت تقفز كالعنز . لكنها لما وصلت البيت ، سرت قشعريرة في ظهرها ، وأطرقت في الأرض : وخيّل إليها أنها ترى في كل العيون نظرة خبيثة .

كان الأفندي ينوي السفر إلى المدينة ، وأمر بإسراج الفرس . كان على السيدة الآن أن تضاعف الحراسة بغياب زوجها الذي يساعدها على ضبط النظام ، لأن هذه الخادمات مجرد حمقاوات طائشات ، وهؤلاء العمال وصمة عار معظم الأوقات . لكن كريستينا كانت تريد أن تخرج ليلاً لتتشمّ أزهار العسل بصحبة الشخص الآخر ، بصحبة الحطّاب الذي يقف متأهباً مرتدياً كي لا يبدّد وقته إذا سمع صوت الكوكو . وما أشدّ اعتمادها على كتفه ناظرة إلى القمر في المرقب!

ولا مرغريتا تظل راقدة ؛ يقيناً أن السيد ليس هنا ، لكنه ، إذا عاد من المدينة ، فقد يجلب لها قطعة من النسيج رُسمت عليها أزهار لتصنع منها ثوباً ؛ فقد كان أهدى إليها من قبلُ شيئاً من هذا... إسبرانثا هي التي تخرج خفية في العادة ، حين تملأ الجداجد الليل بغنائها ، لكنه غناء جدّ متتابع ، وجدّ رتيب حتى يتعوّد المرء سماعه أحياناً ويبدو كأنما لا يسمعه ، أو كأنه صوت الصمت ذاته .

ربط الطبيب حصانه إلى شجرة الكستناء ، وتوجّه إلى البيت . عدّ : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة... لكن الليل كان حالكاً جداً ، فأخطأ الهدف ، ودقّ بأصابعه دقّات خفيفة على زجاج نافذة . ماريّا!... ما كان يرفع صوته كثيراً ، لأنه ما كان يحتاج إلى ذلك ، فهي كانت ذات سمع مرهف...

ذهشت السيدة الكبيرة من أن يناديها أحد من الشرفة . ماريّا! ... فتحت النافذة وتدلّى منها رجل إلى الحجرة . ألا ترين أنه خير مكان ؟ لم تقل السيدة شيئاً ، لأنها كانت تريد أن ترى أين سينتهي الطبيب . بحواسّها الخمس كانت ترفض ذلك الموقف – حاشا لها! – ... ، ومع ذلك... كانت قوى الروح الثلاث تهيب بها أن تكون على حذر ، لكن شيطان الجسد! أنكرت الأمر ، وقالت لنفسها برعب : ما هذا ؟ لا! ذلك كان محالاً! هي كانت تريد فقط أن تعرف إلى أين سيصل الطبيب في جرأته .

كانت الآنسة في الغرفة المجاورة ترتعد داخل قميصها الشفيف ، وكان رأسها يحاول أن يطرد عنه المخاوف الزائفة . لعلّه لم يستطع المجيء! كانت تقول لنفسها . أمّا كريستينا التي كان يطوّقها الحطّاب بذراعه ، فكانت تنظر إلى القمر في المرقب مستندة إلى أزهار العسل العطرة... وشرعت مرغريتا تروح وتجيء أمام الجناح . وظلّت تصعد وتهبط لمدة عشردقائق على الأقل ، ثم كانت تقول للخبّاز : لو لم تصل في هذا الوقت لأُصبت بالرشح . ما أشدّ برد الليل! أدرك الطبيب في الحال أنه كان أخطأ .

– لا أدري كيف استطعت البقاء كل هذا الوقت – قال لها . – ألا تكون بنتك سمعت حديثنا ؟ من يدري إن ظنّت بنا ظنّ السوء! لا أدري كيف استطعت البقاء كل هذا الوقت دون أن أحذّرك . في الواقع ، هو واجب يمليه الضمير . أنا كنت أقول لنفسي : أين أستطيع لقاء ماريا لأنبّهها ؟ وجاءتني الفكرة فوراً : في حجرتها! لذلك قلت لمّا دخلت : ألا ترين أن هذا خير

مكان ؟ نعم ، كما قلت لك : في الواقع ، هو واجب... زوجك...

- زوجي ؟

- نعم ، زوجك...

- ما له ؟

- إذاً ، هذا

واخترع الطبيب كذبة ، لأنه ما كان يعلم شيئاً ، فاتهم كريستينا... أنا رأيتهما! استطاع القول لمّا رأى نفسه في مأزق حرج . خرج مرة أخرى من النافذة ، ودقّق هذه المرة النظر جيداً ، وطرق النافذة بأصابعه وقد عيل صبره قليلاً . وأصبح عليه الصباح وهو بين ذراعي حبيبته .

أما حصانه فقد شدّ وشدّ حتى تحطّم اللجام الذي كان يرتبط به إلى الشجرة وانطلق كالبرق . كبت فرس الأفندي وهوت به إلى الأرض .

- باه! - كان يقول من حافّة الطريق - الحق على الربيع!

* * *

٣

طلب الحطّاب أن يلقى السيدة وقال لها : سيدتي ، من ينبغي له أن يرحل أنا ، وليس كريستينا . أرجوك أن تصفحي عنّي .

لكن كريستينا كان صرّت صرّتها غارقة في بحر من الدموع منحدرة في دربها إلى الطريق العامة .

كان السيد محطوماً ، وكانت ترعاه بنته . دخلت الستّ وجلست باسمة جداً عند قدمي السرير وأنبأته أن صويحبته انصرفت . قطّب الأفندي حاجبه ، ونظر إلى الحقيبة التي جلب فيها القماش الأحمر لمرغريتا .

– كيف يكون ذلك ، – كان يفكر – إن كنت رأيتها منذ عشر دقائق تتخطر في الممشى ؟

استأنفت الست كلامها ببسمة صغيرة : وقد علمتُ منذ قليل أن الحطّاب ينافسك فيها .

– من قال لك ذلك ؟

– هو نفسه . كان معي منذ قليل .

– لا ، لا أعني ذلك . من قال لك اسم المرأة ؟

– الطبيب الذي كان في حجرتي هذه الليلة!

وسقط من يد الآنسة الصحن الذي كان يحوي فطور الأفندي ؛ ثم انتابتها نوبة هستيرية ، وكان لا مناص من استدعاء الطبيب . لم يشأ الأفندي أن يراه ، وقال لزوجه : إذاً ، خدعك على شكل بائس! ليست كريستينا ، وإنما امرأة أخرى . ابحثي عنها إن شئت . ولم تشأ الستّ بعد كل ذلك ، أن تقع عيناها على الطبيب . في الحقيقة ، هو رجل ثقة ، قالت لنفسها لتهدئ من روعها . أما وأنّه رجل ثقة ، فقد ظلّ والآنسة وحيدين ، وأزال عنها النوبة بطريقة أصيلة جداً .

أقبل الحلاّب حاملاً قبعته في يده إلى حيث الستّ ، وتنحنح ثم قال : سيدتي ، كريستينا بريئة! خادمك...

– وأنت أيضاً!

أمرت الست بالبحث عن كريستينا ، لأن تفكيرها قد تطور ؛ فهي ترى الآن أن الخطأ الوحيد كان خطأ زوجها . أما أخطاء الآخرين... عادت كريستينا تشع فرحاً ، وقبلت قدمي سيدتها .

بعد ذلك ، أمرت الست باستدعاء إسبرانثا لترى إن كانت تستنبط منها شيئاً : حسن يا إسبرانثا! قررت العفو والصفح . لكن ينبغي لك أن تقولي لي لماذا السيد...

واندفعت إسبرانثا باكية وقالت :

– آي ، يا سيدتي! إنه الأفندي الصغير...

– الأفندي الصغير ؟

أُرسل الأفندي الابن إلى مدرسة داخلية . لكنه أُنقذ في الطريق بأمر من والده الذي آواه في بيت يقع على الجانب الآخر من الوادي . ولما طردت السيدة إسبرانثا ، كلفها السيد برعاية ابنه .

حينئذ استدعت الست إليها مرغريتا واتهمتها بالتآمر على سعادة

بيتها . فأجابتها مرغريتا بكلمات تخلو من الذوق : حسن! لتقل ما تشاء ، فهي لا تأبه بها . وعلى إثر ذلك ، طردتها إلى الشارع . فذهبت إلى القرية التي تبعد شيئاً قليلاً عن البيت . لكن السيد حملها ، لما تعافى ، إلى البيت الصغير في الجانب الآخر من الوادي ؛ ولعل من المناسب التفكير في تنظيم البيت الصغير مرة واحدة : فلا بد من تنظيفه ، وتنسيق حديقته . وانتقل الأفندي إلى هناك أيضاً . وهكذا صار بمستطاعه أن يراقب السيد الصغير على خير وجه . كانت الآنسة تعاني من نوبات عصبية متتالية ، فنصحها الطبيب أن تبدل الهواء ، أن تذهب إلى البيت الصغير مثلاً ، وبذلك تستطيع رعاية أبيها العجوز . وصار الطبيب يتردد عليها كثيراً . وما أنبل تلك الأعصاب!

* * *

﷽

ومضى الزمن ، وانقضى الربيع أيضاً . وجاءت أوقات البرد جالبة معها أمراض الرئة.. ولما دُفنت الستّ في المقبرة التي تقع في محيط الكنيسة كان مطر يكاد لا يُرى ، يغرق المشيعين .

كاميلو خوسيه ثيلا Camilo José Cela

ولد كاميلو خوسيه ثيلا (واسمه الحقيقي (ك . خ . لوغرا) عام ١٩١٦ في لاكورونيا في إسبانية . وقد عرف الشهرة وهو في السادسة والعشرين لما أصدر روايته الأولى/ عائلة بسكوال دوارته/ عام ١٩٤٢ ، التي ترجمت إلى لغات عالمية شتى . كما عني في تلك الفترة بكتابة القصة والشعر أيضاً . فأصدر هذه المجموعة القصصية ، وديوانين شعريين ؛ وأصبح متردّداً بين الرواية والقصّة والشعر ، إلى أن وجد إبداعه الحقيقي في فن الرواية وأدب الرحلات الذي أضفى عليه نكهة ومذاقاً جديدين . يضاف إلى ذلك اهتمامه بالبحث اللغوي ، فانضمّ إلى مجمع اللغة الإسبانية الملكي عام ١٩٥٧ .

تُلمس في كتابته روح الفكاهة التي تكون أحياناً شاعرية رقيقة ، وسوداء مرة أحياناً أخر ، ربما بتأثير أحداث انطبعت في ذهنه بحدّة وتركت صدى في كتاباته ، وهي أنفلونزا عام ١٩١٨ ، وحرب الريف والحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٦ وعقابيلها .

عُرف ثيلا بجرأته وتجاوزه لكل التابوات المعروفة ، فأصدر "القاموس السري" و"معجم الجنس" .

ومن رواياته : خلية النحل - الشقراء - مزلقة الجياع - سان كاميلو ١٩٣٦ - وظيفة الظلمات - ورائعته لحن ماتوركا على ميتين التي نال عنها الجائزة الوطنية الكبرى عام ١٩٨٣ - وقد صدرت نسختها العربية عن دار

المدى بتعريبنا - والمسيح بموازاة أريزونا وغيرها .

نال جائزة أمير أستورياس للآداب عن مجمل أعماله عام ١٩٨٧ وجائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٩ .

* * *

الفهرس

كاميلو خوسيه ثيلا

نوبل ١٩٨٩

• ولد عام ١٩١٦ في بدرون إحدى مدن منطقة غليشية في إسبانية . يعدّ ثيلا من أبرز الوجوه الأدبية في اللغة الإسبانية . يشمل عمله الروائي الذي ترجم إلى لغات شتّى : عائلة بسكوال دوارته ١٩٤٢ ـ جناح الاستراحة ١٩٤٣ ـ وقائع وكسوارث جديدة في حياة لاثريو ديتورمِس ١٩٤٤ ـ خلية النحل ١٩٥١ ـ مستر كلدويل يتحدّث إلى ابنه ١٩٥٣ ـ الشقراء ١٩٥٣ ـ مزلقة للجياع ١٩٦٢ ـ سان كاميلو ١٩٣٦ ـ (١٩٦٩) ـ وظيفة الظلمات ١٩٧٣ ـ لحن ماثوركا على ميتين ١٩٨٣ التي حازت على الجائزة الوطنية في الأداب ـ والمسيح بمحاذاة آريزونا ١٩٨٨ ـ إضافة إلى قصص وقصص قصيرة . وله شعر وأدب رحلات . وهو عضو في المجمع الملكي للغة الإسبانية .

• نال عام ١٩٨٧ جائزة أمير أستورياس للآداب في إسبانية عن كامل أعماله ، ثم جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٩ .

ISBN => 2-84305-321-8
EAN => 9782843053214